جدار الملح

رواية

جعفر الهدي

2020

الفصل الأول

من منزل الجد
إلى فضاء القرية

السكون حط على كلّ الأشياء، وظلٌّ المساءِ يمتدُّ، جلس بعض رجال القرية بساحة السوق، وفي الجوار الظلُّ يقتطع فناء منزل معلم القرآن، الغرفة الوحيدة فيه تعانق غرفاً مهترئة بالمنازل المجاورة، ضجيج الأطفال يرتفع ثم يتلاشى ، الضجيج يتبدد في الأزقة، جزء من مشهد بحي عتيق ، هناك في الزاوية جلس الطفل "عليُ" ، تأبط مصحفاً ورسم خطوطاً على رمل الأرضية ، نظر للباب الكبير فلمح ضيوفاً ، شعر بشيء غريب وهو يراقب القادمين ، لا يزال يتذكر المسافة بين دار جده ذات الأرضية الطينية و "الدروازة" الكبيرة، الضيف يغذ الخطى صوب غرفة الجد ، وطفل يمشي في ظله الطويل، بضع دجاجات تهرع خوفاً من وقع حذاء الضيف ، وأنظار الأطفال تتلفت والضجيج يخفت، الجد يجلس في سكون، ويرحب بالزائر بدفء: عليكم السلام، حيا الله السيد.

لا يزال "عليٌ" يذكر ثوب ذلك الطفل وهي تعري ساقيه المتسختين، وجهه بلا ملامح، ونظراته مشحونة بالغموض، والأب بلباس العمل الرسمي يشي بأنه لم يستقر في منزله ليهرع لمنزل الجد، ومع ذلك رحب به الجد وناداه بالسيد دون اسمه، يبدو أنه آتٍ لأخذ استشارة معلم القرآن ربما لأمر يخص الطفل، هذا السيد الذي لا

يتحدث يجلس القرفصاء أمام الجد واجماً دون أن يتبسم، إنه في حالة يرثى لها ولكن الجد يبجله بكلمة "السيد"، لم يفهم عليُ معنى هذا التبجيل، ربما ليس له اسم، وكان يتساءل في نفسه إن كان الصغير سيدُ أيضاً، لا يظن ذلك فحالته الرثة تعني غير ذلك، يعود وينظر للسيد ويقول لنفسه: ها هو الأب في حالة يرثى لها ومع ذلك كناه الجد بالسيد، تراه سيد من؟ وعلى من؟ أسئلة لم يجد الصغير إجابة لها.

مشهد الطفل الصغير الذي استقر تفكير "عليٍ" على أنه سيد أيضا وسيبدأ يرسمه في مخيلته هكذا، "السيد الصغير"، حفر عليُ في جدران أعماقه خطوطاً مؤلمة لهذا السيد الصغير، الطفل هو ابن المدرسة نفسها والصف نفسه، لكنه في حالٍ مختلفة، المشهد كان كافياً ليغالب عليٍ دموعه، ورغم أنه لم يعلم أنه هو نفسه يتستر بثوب قديمة خصصتها أمه للخروج لفترة ما بعد المدرسة، تألم كثيراً وهو يرى زميله بتلك الثوب التي تفضح وضع الضيف البائس، نظر لنفسه فوجد جسده يتستر بثوب بيضاء قديمة لكنها نظيفة، تبدو رائعة بمقارنتها بثوب السيد الممزقة، أزرار الثوب كاملة بينما كانت ثوب السيد الصغير بلا أزرار وكان صدره شبه عارٍ، وتكاد الثوب تعري بطنه الصغيرة، تأمل ثوبه

فوجدها جميلة لما رأى رقعة بلون مختلف من الخلف بثوب السيد، لم يفهم حينها لماذا رقعت ثوب السيد بلون آخر، ألم يكن ممكناً أن ترقع بنفس لون الثوب، شعر بزهو كئيب وهو يقارن بين ثوبه وثوب السيد، زهو يصل لحد الكئابة والألم، أحس أن داخل أعماقه جرح ينزف، جعله ذلك الجرح يضطرب، بين الزهو والحزن أخذ يتابع المشهد بين الجد والسيد الكبير النحيل.

حمله الشعور بالألم لباب غرفة الجد، ترك سرب النمل الذي كان يلاعبه وتسمر أمام باب الغرفة، حاول أن يصطاخ للحوار فلم يسمع سوى همهمات، حتى الإشارات لم ترو ظمأه، عاد لزاويته يداعب سرب النمل فيحرفه تارة عن مساره برسم خط بأصبعه في أرضية فناء المنزل الرملية وتارة أخرى بوضع حاجز من خوص النخيل اليابس ليكتشف قدرة النمل على العودة لمساره.
عليُ هذا اليوم منشغل بذلك المشهد بينما الصبية منشغلون ببعضهم، يتناثرون كالحمام في فناء المنزل، راق لهم انشغال الجد مع السيد عن تعليمهم القرآن، لم يلتفت أحد على ما يبدو لما يشغل علياً أو لنقل إنه كان يظن ذلك، فلربما كان آخرون من الصبية قد اصابهم ما أصابه، من يدري؟

كان يسيراً أن يجلس "عليّ" في زاوية من زوايا الفناء أو يعود لباب غرفة الجد، الفناء مفتوح للأطفال، يلحظ من مكانه أن الجد فتح قرآنه القديم فنظر فيه بر هة ثم رفع عينيه محدقاً وتبسم، لم يفهم عليُ من ذلك غير أن الجد قد أجاز للسيد الزائر المضي في مشواره لكن ما هي المشكلة وما هو الحل، تلك أسئلة ظلت تصب حرارتها على جرحه الغائر في أعماقه بسبب منظر الطفل الصغير.

يبدو أن المعلم لن يعط الصبية بالاً هذا اليوم، سيتركهم يمرحون في الفناء، إنه منشغل مع موضوع السيد، سيكبر الصبي دون أن يفهم ما يجري بالضبط، لكنه سيفهم أن المعلم منشغل بأمر ما لن يعرفه أبداً، سيتسرب الصبية في أزقة القرية يجوبونها لعباً قبل العودة للمنزل، إنه الفرصة السانحة اليوم ليأخذوا قسطاً من اللعب في الأزقة الرطبة، بين الجدران الطينية ومخلفات المنازل النتنة، سيلعب الأطفال بفرح دون أن يعرفوا عما حولهم، سيمرحون ويقفزون بسعادة لكنهم لا يعرفون أنهم محاطون بمستنقعات آسنة، إنهم تماماً كثوب السيد الصغير المرقعة، تلك الثوب التي تستر السيد الصغير تؤلم ناظرها ولكنه لا يعلم إنه كذلك.

القرية مسترخية على ساحل البحر الساكن، بينها وبين ذلك الشاطئ مسافة كافية لنسيانه، بدا وكأنها لا تعرفه، فارقه الجالسون في الظل منذ زمن، كأنهم يبحرون اليوم في الظلال، حتى الساحل ومياهه اعتزلهم وبدا في غربة طويلة، لا قوارب تلجأ إلى ضفافه، بقايا قوارب صغيرة متكسرة تجثو في المياه القريبة، الأمواج تتكسر على تلك الرمال البيضاء، لا بحارة يهرسون تلك الرمال إلا ذلك العجوز الضخم، يظهر في الصباح الباكر، تراه قد ركب حماره متحدياً أمواج البحر المتكسرة حتى يختفي بين الأفق والمياه، في المساء يعود والسمرة قد طرزت وجهه المبلل بعرق الشمس الساخنة، يلف رأسه بإزار مرقط، شوالان يتدليان من على ظهر الحمار لا أحد يعلم ما بهما.

الرجل الضخم يكتفي بالإشارة على من يمر عليه، يختصر في ملامحه علاقة البحر بأهل القرية، كأنها امرأة معلقة، تسكن في غرفة مجاورة لكنها لا تعاشر زوجها، لكن البحر كما الرجل يبدو صلباً والقرية كما المرأة تخفي ملامح الجمال بأثوابها الرديئة، فتنتها بين الأزقة تختفي كما تختفي ملامح الرجل خلف سمرته الطاغية بسبب الشمس.

الشمس محايدة بين البحر والقرية، تسطع وكأنها ملك لهما فقط، وهجها حاضر على الوجوه حتى تلك الجالسة في

الظل، لا مفر لأحد في تلك القرية من ذلك الوهج، كأنها خطوط رسمت كما ترسم القبائل الأفريقية وشماً بالنار على صفحات وجوه أهلها، الشمس هنا تتكفل بختم الوجوه بسمرة متدثرة، الوجوه هنا كلها حنطية، لا تخطئ العين ذلك الوشم على وجوه الكبار والصغار.
العجوز الضخم تحول إلى رمز بين البحر والقرية، أحياناً ينشر بعض الأسماك أمام منزله على حبل متدلي كما تنشر النساء الملابس، وإذا زاد السمك نشره على الأرض بعد أن يشق بطنه، هكذا يجفف السمك عند العجوز الضخم، إنه يجفف ما يفيض من الصيد لأيام الشتاء عندما يلسع البرد جسده المتصلب ، قد يبدو الشتاء هو السبب لكن ربما يكون هروب السمك للأعماق أقرب، حينما يشتد الشتاء يعجز الحمار عن الذهاب إلى حيث تلك الأعماق البعيدة، هذا الحمار الضخم كسيده يجوب البحر ولكنه يقف حائراً حينما تتجمع المياه الآسنة في طريقه، ذلك الطريق التي يسلكها العجوز بين البحر والقرية أصبحت وكأنها ملكه لوحده، موسومة كلوحة بملامحه وهو يعبرها جيئة ورواح، يبللها بعرقه فتتنفس، كأنها تنتظره، تتبسم له كل يوم، لكنه كالطود لا يعيرها اهتماماً، حتى حينما يترك حماره ويسير على قدميه فيبسط رمالها البيضاء، متجهماً يعبر حتى يختفي في منزله العتيق، الحمار يعرف طريقه نحو الحضيرة الصغيرة أمام المنزل، كأنه يستقبل المارة،

يستلقي هناك فيحفر ببطنه منصة للنوم، لم يعد نهيقه يزعج الناس هنا، لقد تحول لجزء من المشهد ... الأزقة وأولئك الجالسون في الظلال، وأطفال يتراكضون ... يتكرر المشهد كلّ يوم، يحيط بالقرية حزام النخيل الأسود، سور لا مدى له، حتى تبدو بيوت القرى الأخرى ، في كل الجوانب يعانق النخيل النخيل، تبدو القرية معزولة إلا من طريق واحد يتصل بالطريق العام الذي يمر بمحاذاة القرية على بعد كيلومترات قليلة.

امتدَّ ظلُّ العصـــر إلى نهاية فناء منزل الجد، كان الصبية يترقبون إشارة الانصراف ، و ما إن ارتفعت يد الجد السـمراء حتى هرع الصـبية صـوب الباب الكبير "الدروازة" ، وكـان " علي " في زحمـة الركض، لم يعرف لما كان بذلك اليوم قد عاد للمنزل دون إبطاء وعندما وصـل لم يعرف كيف أطبق عليه الصـمت ولم يحدَث أمه بشيء ، لكن الأم بفراستها عرفت أن شحوب الابن يحمل قصـة فسـألته عما جرى مع المعلم (الجد)، و هو أبوها الذي لا ينقطع عن زيارتها صـــباح كل يوم، كـانـت تظن أن مكروهـاً قد حدث للجد ، لم تكن تلح بالسـؤال إلا بمقدار ما يجعلها تطمأن على حال الجد ولم يكن يعرف كيف يحدث أخوته بالمشهد لذلك ظل شعوره بالألم، وظل ينتظر أن يحل الليل لينام فيصـــحو ويذهب

إلى المدرسة ويجد السيد الصغير بثوب المدرسة علَ ذلك يخفف من جرحه الذي تحول لما يشـبه الرقع في أعماقه الطرية.

مساء تلك الليلة علي كان على موعد مع القمر إذ فرشت أمه سريره بفناء المنزل، كاد الليل ينتصف وعلي يتقلب مرة على اليمين وأخرى على الشـمال يداعب بجسـمه الطري النحيل حبات الندى الناعمة التي بدأت تتهاطل، يستشعر بجسده برد الندى الذي سرعان ما يذوب فيبدأ بالتقلب، يقلب جسده صوب الجهة الأخرى كلما امتص جسده الندى.

جافى عليُ النوم وهو يداعب الندى والقمر ومشهد زميله يفترسـه كلما أغمض عينيه وبينما نام الجميع ولم يتبقى في الفناء إلا مواء قطة صـغيرة بعيدة بدا أنها تتأوه من جرح أصيبت به، كأنها تسامره وتناغي جرحه، لكنه كان يأبى التشـارك معها سـوى من بعيد، تجربته مع القطط حتى الأليفة منها لم تكن بالقدر المريح فكأنها تخشـاه ويخشاها دون سبب.

صـباح اليوم التالي وعلى غير عادته لم يخرج عليُ لجمع طعام الطيور، كان متعجلاً، عليه أن يرتدي ملابس

المدرســـة ليتجه في الطريق الرملي قاطعاً كيلومترين وهدفه رؤية الطفل الصـــغير بحال مختلف، كان يريد أن يبدد منظر السيد الصغير الذي ارتسم بأعماقه، تأمل أن يمحو ذلك المنظر بمنظر آخر للسيد في ثوب دون رقعة، في الطريق كان أطفال المدرســـة يتناثرون في مســـاحة واســعة بين الرمل والماء الآســن وطقوس العلم قد بدأت تواً، على الصـــبية أن يتوقفوا ليمر أســـتاذ اللغة العربية الذي أســـرع خطاه قبل الدقائق الأخيرة من قرع جرس الصـباح، إنه يغذ الخطى نحو المدرسـة، لا يعرف عليُ لماذا لا يركب هذا الأســـتاذ الســـيارة، إنه يصـــر على مضايقة الصبية حتى وهم في الطريق للمدرسة، ينازعهم ذلـك الطريق المعبـد بـأقـدامهم وســـط الطين، رغم أن الأســتاذ ذاته ســوف يشــرف على طابور العقاب لمن لم يتمكن من الوصـــول قبل ذلك الجرس، كان علي يتدارى بالمعلم ليجتاز عقبة زميله الذي اعتاد أن يشـــاغبه بلعب الكاراتيه وأن يتجنب الوقوف مع شلة (جعفر) التي تتعمد التأخر لتذهب جزءاً من الحصـة الأولى، وبالفعل وصـل لفناء المدرسـة الواسـع حيث لم يكن للمدرسـة سـور يحد ذلك الفناء، كما كل يوم ينجح في الوصول للمدرسة دون أذى، عندما كبر عرف بأن المعلم وشـــلة جعفر وحتى زميله صاحب الكارتيه لم يكونوا يعيرونه اهتماماً لضآلة جسمه.

أخذ الصـــبي يقلب وجوه الفتية عله يعثر على الســـيد الصــغير، وفيما تبقى من دقائق تســبق الجرس كان عليه أن يفتش في ســـاحات ثلاث تواجه كل ســـاحة قرية من قرى المنطقة المجاورة، لكن البحث لم يثمر شـــيئاً، وجد الصــبي نفســه في مقدمة طابور الصــباح وكان عليه أن يختلس النظر لمن يقف خلفه ليجد وجهاً آخر غير وجه الطفل النحيل القصير الذي اعتاد أن يليه بحسب الطول، إذن فالســـيد الصـــغير لم يأتِ اليوم، تأكد له ذلك حينما ســنحت له فرصـــة تصــفح وجوه زملاء الصــف عندما اختار المعلم المشرف الابتعاد بضع خطوات للحديث مع معلم آخر، النظام صــارم، لم يكن التلميذ يســتطيع التلفت حتى في طابور الصـــباح، كأنهم في طابور عســـكري، وحدهم المعلمون يحومون فوق رؤوس الطلبة، الممســك بالميكرفون يصــرخ: تفتيش، يلف الطلبة أجسـادهم بشـكل متقابل، يمر المعلم بينهم وهم يمدون أياديهم، يتأكد أن أظافرهم مقلمة، إذا توقف المعلم عند أحدهم تبدأ قلوبهم تدق بقوة، الحالة ذاتها كل يوم، شـــعرك طويل، أظافرك طويلة... يمر الوقت ويتحرك الطلبة صوب الصف ولكن السيد الصغير لم يحضر.

شعر الصبي بفراغ رغم أن السيد الصغير لم يكن يخلق بجسده النحيل ذلك الفراغ، فقد كان يجلس مع طفلين على

مقعد واحد وقد سعد الاثنان بتلك الفسحة من الجلوس بذلك اليوم دون أن يخطر ببالهما السؤال عن السيد الذي شغل عقل الصبي، ومر اليوم المدرسي طويلاً بين التفكير في مصير السيد الصغير وصراخ المعلمين ومضايقة (ابن صالح)، هكذا يسمونه فهو لم يكن كالصغار البتة ، مفتول العضلات أو هكذا بدا له، كما بدا أيضاً أن له ملامح تخيفه ولذلك فقد اعتاد أن يسلمه بكل رحابة صدر مصروفه اليومي ليبقى هو جائعاً مع بعض أقرانه ضعاف البنية دون أن يتجرأ على إبلاغ أخيه الأكبر بنفس المدرسة، اعتاد (ابن صالح) أن يأخذ المصروف الذي يعطيه والده كل يوم وشاركه في ذلك صديقه حسن، اكتشفا خطة لمقاومة الجوع لبقائهما دون طعام حتى الظهر، إنه شرب الماء، حتى اكتشف يوماً أخوه ناصر ما يجري فابلغ والده، في اليوم التالي انتظر عليُ وصديقه حسن ابن صالح ليأتي ويأخذ المصروف لكنه لم يأتِ ومنذ ذلك اليوم عرفا إن المشكلة تم حلها ولكنهما لا يعرفان كيف تم ذلك.

عند الظهر وفي غمرة الفرحة العارمة بمغادرة المدرسة بدأ علي يعلق أمله بأن يعود السيد الكبير عصر اليوم ومعه السيد الصغير لبيت الجد وكان يقطع الطريق نحو البيت وعينه على بيت الجد الذي يبعد أمتاراً قليلة، كان

عليه أن يتناول الغداء ثم يقوم ببعض طقوس اللعب في فناء المنزل قبل أن يتجه لبيت الجد (معلم القرآن) وعلى غير العادة قصده باكراً ومتحمساً وهناك أخذ مكانه بعيداً عن زاوية النمل التي اعتاد على اللعب معها كل يوم، كان يتأهب للقادم من صوب الباب المشرع على الطريق ليستمع للحوار بكل تفاصيله، وعندها لم يكن الجد قد خرج للصبية الذين أخذوا في التوافد للفناء في تثاقل، تهيأ علي للمشهد، بدأ يختلس النظرات لجده وهو يعالج (نارجيلته) بيدين حفر عليهما الزمن قساماته، ومما كان يسمع من أمه تخيل الصبي تلك اليدين السمراوين وهما تجمعان اللؤلؤ من قاع البحر أو وهما تخلصان السمك من شباك الصيد أو تصنعان فرش الخوص، كان يرسم في مخيلته الكثير عن جده، كان يراه بطلاً كما رسمت صورته أمه، ربما كان في يوم ما بطلاً يجوب البحار لكنه اليوم تحول إلى لوحة مطرزة بتلك الذكريات.

أخذ يتأمل يدي جده تصلح النارجيلة، كان ينظر لخطوط قسمت يد الجد أخاديد وقد أخذ الصبي يتنقل بين عين الجد وتلك الأخاديد فلحظ تناسقاً كبيراً بينهما فكأن الخطوط التي كانت تلتف حول عين الجد امتداد لخطوط تلك اليد، قضى الصبي وقتاً لم يكن يعرف مداه وهو يتأمل صورة الجد الذي جلس القرفصاء ورجلاه حتى

ركبتيه قد بدتا وســط عتمة الدار الرطبة مؤملاً بأن يطل ضــيف الأمس، وهكذا ظل أياماً بين المدرســة والمعلم يفتش عن صــورة الطفل الصــغير لكن دون جدوى، لم يجد السيد الصغير لكنه رسم صورة الجد وبقيت محفورة بـداخلـه، كـأنمـا خبـأهـا ليوم مـا، ســيعود ويخرج هـذه الصورة، كالساحر الذي يخرج من كيسه البيض حمامة، من يدري لقد خبأه وحســب، لم يعلم لماذا ولكنه خبأها بعناية.

الفصل الثاني
أخطار تتهدد القرية

بذلك اليوم تفاجأ بأن أمه قالت له: اليوم ما في مدرسة، أنت وأخوتك!

تعجب كثيراً من هذا الإجراء فهذه الأم اللطيفة حازمة في أمور المدرسة، حريصة على الانضباط في التعليم الصباحي والمسائي، وطالما كان العقاب شديداً لمن يحاول كسر هذا النظام، كلهم يعرفون ذلك، كان يتحسر أنه لا يستطيع أن يغيب عن مدرسته يوماً، كان يسأل الأطفال عن طعم الغياب بيوم دراسي منتظم، رغم أن أحد منهم لم يجب على سؤاله لكنه كان يشعر أن ذلك كطعم تناول قنينة مشروب غازي في نادي القرية عندما يهديه إياه خاله وهو يراه وسط الأطفال يشاهدون فيلماً، كان لذلك المشروب كطعم شراب الجنة؟

- ويش صاير، ليش ما بنروح المدرسة ؟
- اليوم بياخذكم أبوكم يفصل ليكم ثياب.

استغرب كثيراً من هذا الإجراء الغريب فهو يعرف أن والده يأخذهم عادة لمتجر الملابس عصراً، لا يوجد متجر للملابس بالقرية لذلك يأخذهم للمدينة القريبة، قرر هو وأخوته أن يفتش عن السبب، لكن كيف؟
حاول أن يسترق السمع لحديث والديه، فوجدهم يتحدثون عن شيء خطير في المدرسة، والده يقول:

- تبغين انخليهم يروحون وبعدين نخسرهم!!!
- لكن لمتى بيظل الوضع هالشكل؟

- ما أدري بس أنا الأستاذ حذرني وقال ليي لا تخليهم يجون لأن الوضع خطير!!!

ظلت الأفكار تناوش "عليّاً" وأخوته بشأن الوضع الخطير الذي تحدث والداهم عنه، لكن خروجهم مع أبيهم لمحل الملابس ثم لمحل الحلويات أنساهم ذلك الوضع، كان ذلك صباح استثنائي، صباح بطعم آخر، يتذكر عليّ وأخوته كل حين أسماء المدرسين الذين يفترض أن يكونوا تحت سطوتهم، لم يشعر بلذة كشرب المشروب الغازي، لقد شعر بلذة أخرى، نغصها التفكير في السر المخبأ، تدريجياً بدأوا في لعبة التذكر:
الحين عندنا عربي، حصتان، ويا لها من حصتين تبلغ فيهما الأنفاس الحناجر، الأستاذ جعفر يحول الفصل إلى مسلخ، يحصل جميع الطلبة إلا ما ندر على نصيب من يده الكبيرة!!!

عليُ يخاطب أخاه الأصغر: بس أستاذ جعفر أرحم يضرب على مناطق قوية في الجسم، الكتف أو الظهر، بس البلوى الأستاذ سليمان مدرس اللغة الانجليزية، يضرب في مواقع خطيرة، البطن، الرأس!!!

رغم فرحتهم بيوم إجازة استثنائي إلا أنهم قضوه في الحديث عن المدرسة والمدرسين، شغلهم الكعك المدور لبعض الوقت عن هموم المدرسة التي سرعان ما تعود وكأنها كوابيس ليلية:
أحد أخوة علي: أستاذ ابراهيم طلب نكتب جدول الضرب مائة مرة، الحين بيقول أنا غايب لأني ما كتبتهم وبيضربني.

- بس أنت كتبتهم؟
- لكن ما بيصدق، لازم الوالد يكلمه، هذا إذا رحنا المدرسة بكرة؟
- يمكن بعد كل الطلاب ما يروحون مثلنا؟
- لا بس أنا ما شفت حسن!!! يعني راح المدرسة؟

لا يعرف علي وأخوته لماذا بالغ والدهم بذلك اليوم في الجولة التي أخذهم فيها، فبعد أن انتهى من متجر الحلوى أخذهم لمحل الحلاقة وكان الوضع استثنائياً إذ خيرهم في نوع الحلاقة التي يريدونها، بدا الوضع مختلفاً ولكنهم تقبلوهم بفرحة عارمة ولشدة الفرحة والغرابة لم يختر أي منهم قصة غريبة واكتفوا بألا يقص الحلاق أغلب شعرهم، كان ذلك غاية مناهم، بعد ذلك تعمد الوالد أن ينزلهم في مكان قريب من القرية حيث بساتين البطيخ

الطازج، يبدو أن الوالد يعرف صاحب المزرعة لذلك أخذ معه قسطاً من الراحة، وكان لهم أن يتجولوا بين أشجار تلك المزرعة الجميلة، رائحة الأشجار والخضار تملأ الأنوف، الماء ينساب أبيضاً في مسارات صغيرة، المزارع يتحكم فيه بسده بخرق قديمة، طاب لهم أن يشاركوه وهو ينقل تلك الخرق من موقع لآخر، طاب لهم أن يستأذنوا المزارع في أكل بعض الطماطم:

- لا الطماطا أخضر، بعده ما نضج! روحوا أكلوا رطب.

بخلاف نصيحته أكلوا بعض الطماطم الخضراء وكان نصيبهم في اليوم التالي ما حذرهم منه صاحب المزرعة، وهو ما زاد قلق الأم والأب، لم تظهر آثار الإسهال على الأطفال إلا في اليوم التالي، الأمر الذي أحدث زوبعة في المنزل، الأم تعول:

- هذا الي كنت خايفة منه؟
- يا أم ناصر، الأولاد أكلوا طماطا خضرة، أكيد بيجيهم اسهال!!!
- يعني مو كوليرا،،، لا زم توديهم المستشفى ؟

كوليرا ،،، كوليرا ،،، كوليرا ،،،

نزلت الكلمة كالصاعقة على الأولاد، إنه الكوليرا، الخوف منه أقعدنا عن المدرسة أمس والخوف منه يثير الذعر في المنزل، كل ما نعرف عنه إنه مرض فتاك، يقتل بلا رحمة ، وباء جماعي ، هكذا قال عم عليّ ذات مرة :

- ذيك السنة جاء الكوليرا إلى القرية، تصدقون صار حفارين لقبور ما يرجعون من المقبرة، يدفنون واحد ورا واحد، يا الله هذا مو مرض، هذا شيطان...

ترن كلمات العم في آذان علي وأخوته، تخيلوه شبحاً ضخماً يدخل القرية من صوب أحراش النخيل ويبدأ في قتل الناس، لذلك عاشوا في رعب، عرفوا كما يعرف أغلب الأهالي أن أكبر أعراضه وضوحاً هو الاسهال، الجهل هنا يلتحم بالفقر، بسرعة الوالد يحضر سيارة تاكسي ويختفي في الأزقة.
فيما تبقى الأم تعول وهي تنتظر على وجل، توشك ساعة الظهيرة على الوصول، الهواء الساخن يبعث على المرارة فوق مرارة الانتظار والقلق، الأم تذرع فناء المنزل، تعود للمطبخ تارة وتخرج للفناء تارة أخرى، تلهج بالدعاء، وتردد بعض الآيات القرآنية، تتوسل بالأنبياء والأولياء، حر الشمس لم يمنعها من ذرع الفناء بشكل متكرر حتى

باب المنزل الكبير لتتأكد من عودة الأب مع أبناءه، لكن دون جدوى:

- تأخروا ،،، يارب ،،، يالله ،،،
- يا شيخ خلف ضيفني ،،، نذر عليي إذا رجعوا سالمين أسوي مولد عندك...

تارة تتمتم وأخرى ترفع صوتها، وفيما هي كذلك وبعد طول انتظار، وإذا بالسيارة تطل عند الباب الكبير، ينزل الأولاد وهم يتراكضون، الأب وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة:

- الحمد لله، مثل ما قلت لك، كذابين أكلوا طماطا أخضر من المزرعة، اعترفوا للدكتور!!!
- الحمد لله، هذي بركات شيخ خلف، من سويت ليه النذر جيتون.

تتحسس الأولاد واحداً تلو الآخر، تتأكد من سلامتهم:

- علشان هالمرة تسمعون الكلام، شفتون الي ما يسمع كلام الي أكبر منه...

نامت الأسرة تلك الليلة بفرحة كبيرة ولكن على قلق أكبر، لا أحد يعلم شيئاً عن هذا المرض، صحيح أن الدكتور طمأن الأب بأن الحديث يدور عن حالات قليلة وأن الدولة تقوم بحملة لمحاصرة المرض ومنها حملة التطعيم في المدارس، أكد عليه أن يحرص على ذهاب الأولاد للتطعيم في أي حملة لكنه أعطاهم جرعة الوقاية فلا داعي للخوف؟

لكن الظلمة الحالكة وأزقة القرية وجهل أهلها يرفع القلق عند الأب، لا يريد أن يخاطر، إنه مطمأن لأن الأولاد تم تطعميهم لكن ماذا عن العدوى من الأطفال المصابين لا سمح الله.

في اليوم التالي حديث القرية كله عن الكوليرا، بعض الجالسين في الظل يلفون غطاء رأسهم " الغترة " على وجوهم تجنباً للعدوى، الكل يحذر الكل، وسوق للمزايدات فتحت بجانب السوق:

- يقولون في القرية الي جنبنا ماتوا ناس واجد!!!
- بل،،، يا ساتر استر علينا ؟
- يمكن مثل ذيك السنة، مات نص ديرتهم...يقعد في الأكل ويكبر، وإذا أكلته راحت عليك؟
- يقولون حده الي يصيده يعيش ثلاثة أيام.
- يا ساتر استر... يارب.

بعد ثلاثة أيام ذهب القلق الذي كان يساور الأطفال وعادوا للاستمتاع باللعب في الزقاق المقابل لمنزلهم، تركوا الكبار لحديث الكوليرا، وذهبوا للعب وفي مطلع الأسبوع عادوا للمدرسة، وجدوها متغيرة، إعلانات كبيرة تحذر من مرض الكوليرا، كلمة الصباح كانت عن المرض ذاته، المعلمون خصصوا بعض الوقت لتوعية الطلبة عن المرض، جاء طبيب وعدد من الممرضين للاطمئنان على تطعيم كافة الطلبة، ما لفت نظر عليّ تلك الصورة الكبيرة التي وضعت في الممر الرئيس تشرح أعراض المرض على صورة رجل وكان أوله، الاصابة بالإسهال، قال في نفسه:

- الحمد لله لقد ذهب هذا اللعين، عدت طبيعياً، ما طاب لنا أكل الطماطم الخضراء إلا في هذا الوقت، لو كنا أطعنا المزارع وأكلنا الرطب لكان أبرك لنا.

همس كثير سرعان ما تلاشى، لقد بقيت الصور والإعلانات التوعوية على جدران المدرسة لكن أثر ذلك المرض اللعين ظل في خلفية المشهد، سرعان ما ينسى أهل تلك القرى، دواخلهم تبدو ورقة بيضاء، قليلي الشكوى كثيري القلق، صراخهم همس حزين سرعان ما يتبدد مع أول قمر يطل في السماء على تلك القرى الحزينة.

حتى حديث المعلمين بالمدرسة كان كله حول ذلك المرض الفتاك، أتيح لعلي أن يسمع حديثهم بعد يومين حينما أخذه أبوه إلى حيث السيارة التي تقل المعلمين لخوفه من أن يكون غير على المشي للمدرسة، معلم الرسم ذي السحنة البيضاء والشعر الأشقر يتحدث بطريقة حادة، كان يتحدث بالعربية الفصحى:

- لماذا تأخذون الموضوع بحساسية، المرض أمر طبيعي من الله، والله يقول " قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ".

معلم آخر يجيبه باستياء هادئ:

- يعني حتى المرض من الله؟
- طبعاً ... الله خالق كل شيء.
- لكن الله جعل في الأرض سنن، هي التي تسير الحياة بها، لكنها لا يضر أحد، فالمرض ضرر من صنع البشر بسبب الجهل!
- يا أستاذ...لو كان الله مقدر أنك لن تصاب بالمرض فهل سيصيبك؟
- لا طبعاً.
- لكن ماذا لو قتل أحد شخصاً فهل ذلك من الله أيضاً؟
- هذا مختلف.

- وهل كان سيقتله لو كان الله لم يرد ذلك.

علي وقد شعر بوجع في رأسه بسبب هذه المجادلة أخذ يفكر:

- هل كان الله يحبنا أنا وأخوتي عندما منع عنا المرض، أكيد لو كان غير ذلك لاكتشف الطبيب المرض، لكن ... كل الأمر أننا أكلنا طماطم نية، وإن؟ فالله كما يقول المعلم يقدر للناس كل شيء، حتى المرض، لكن المعلم الآخر يقول إن الله لا يضر أحداً وإنما البشر هم من يضرون بعضهم، أظن أن المدرس الهادئ يقول الكلام الصحيح، الآخر متعنت.

كان يشعر بدوار في رأسه من تلك السيارة الكبيرة، وصلت للمدرسة فذهب مسرعاً نحو الساحة حيث يتجمع الطلبة.

في تلك الأمسية كان الحديث أيضاً عن الكوليرا، شبع الأخوة من ذلك الحديث شعروا بأنه مضجر، أحس عليُ بأنه كذبة كبيرة، العم المقعد وقد زاد بطء لسانه وأصبح حديثه قليلاً:

- يا جماعة ... يا جماعة، سوالفكم كل عن المرض والموت، مات فلان ومات علان ... مرض وموت، بسكم من ها لكلام ...

ساد بعض الصمت ثم عاد الجمع للحديث عن الكوليرا مرة أخرى:
ذيك السنة ... في تلك القرية ... تذكر ...
عمه الذي يتقن فن الرواية يستلم الحديث:

- شوفوا ... مرّ زمن كان الناس ما يقدرون يحسبون الموتى، وخبرني جدي الكبير إن المقابر امتلأت ...

ساد صمت مطبق أمام ذلك الحديث، لحظ عليّ علامات السأم على وجه عمه المقعد دون أن يتحدث فواصل العم الآخر روايته:

- في ذاك الوقت يقول جدي الكبير إن الناس اضطروا يدفنون الموتى في المزارع، وإذا تذكرون من سنتين شافوا مقبرة صوب مزرعة بيت اسماعيل، ترى من هذا الوقت إذا ما تدرون ... هذا كل من مرض الكوليرا ...

- يرد عليه العم الآخر: لا تبالغ واجد ... هذي القبور من زمن بعيد لعوائل سكنوا تحت هذي المزارع وكانوا يدفنون أمواتهم فيها ... صدق مرض الكوليرا كان يفتك بالناس بس الحين حصلوا ليه دوا، إبرة واحدة تطيره ...
- لو إبرة واحدة أطيره كان ما انتشر ها لأيام؟
- من يقول انتشر ... كيف انتشر وما أحد مات، هذا أنتو اتخوفون الناس، هذي حملة علشان ما ينتشر ... الزمن الي كان فيه المرض يقتل الناس وهم صم بكم راح ... وين الحصبة الي كانت تقتل نص الأطفال، وين الجدري ألي كان يعمي الناس، الحين الزمن اتطور وصاروا الناس يروحون الدختر والدخاتر يفهمون يعالجون.
- متحدث آخر يقول: لا والله كلام الحجي صح، الحين عملية الدودة الزايدة ما تأخذ ساعة، الأول أظل عشرة أيام بين الحيا والموت، وكلها يشيلون منك دودة في البطن.
- العم وهو يبتسم: هذي مو دودة يا حجي ... هذا التهاب في البطن، يشيلون شحمة وينتهي؟

النقاش الطويل عن الأمراض يسري في كل مكان من تلك القرية لكن علياً عندما كبر عرف أن عمه كان مثقفاً بسبب المرض الذي أقعده فقد كان دائم الجلوس مع الطبيب وكان يسأل عن كل شيء وهذا ما يفسر إجاباته العلمية عن بعض الأوهام التي كان يحملها الأهالي.
لاحقاً علم علي أن عمه المقعد كان طيباً وكانت لديه قدرة كبيرة على تكوين العلاقات حتى أنه كون علاقة مع طبيب بريطاني وقد زاره في المنزل مرات عديدة لفحصه وكان يجلس وقتاً طويلاً يتناول الغداء في المنزل، ذلك ما أعطاه ثقافة مميزة في الأمراض وربما حكمة في الحديث أكثر من غيره من أهل القرية والأعمام.
مرّ الكوليرا على القرية لكن الكثير من الأزمات تمر واحدة تلو الأخرى، ففي وقت لاحق بدأت الطفرة الصناعية في المنطقة وكان نصيب القرية أن تختار المنطقة القريبة منها لإنشاء عدد من مصانع الرمال وقد بلغت الأزمة ذروتها بتركيب كسارات الصخر لصناعة الحصى المستخدم في الخرسانة للبناء، كان نصيب القرية المزيد من الهواء الملوث الأبيض، كان علي يلحظ أن الملابس التي تضعها النساء تكتسي بغبار أبيض.
يتذكر رجل الدين وهو يخرج من منزله بوقار، وحيداً يتجه لمبنى النادي، يبقى فيه لساعات تستمر أحياناً

للعاشرة من الليل حيث يتعب الصغار من اللعب فيعودون للمنازل وهو لا يزال هناك.
مما فهمه من أخيه ناصر أن رجل الدين يجتمع مع شخص من الحكومة بشأن مصانع الرمال، وكان يستغرب لماذا يجلسون كل هذا الوقت الطويل لحل مشكلة واضحة، كل الأمر أن يأمر المسئول بإزالة هذه المصانع!
ما أن يحل المساء في تلك الفترة من عمر القرية حتى يخرج رجل الدين بجلبابه الأسود ولحيته الكثة، يغلق باب داره ويمشي مشية مستقيمة، يعبر الزقاق الأول ليصل للطريق العام، يوقف الأطفال لعبهم وهو يمر بجوارهم، احتراماً له، يمشي في الطريق حتى يختفي في الزقاق المؤدي للنادي، يبقى هناك حيث تدور المناقشات خلف الغرف المغلقة، لكن لا شيء يتغير يبقى الغبار عالق بكل شيء في القرية، باتت المخاوف حقيقية من ظاهرة الغبار المتراكم، كأن القرية غير مكتفية من الأزقة اللزجة، والمستنقعات الراكدة لتأتي مشكلة الغبار الجديد.
أيضاً بدأ الحديث عن الغبار ولقاءات الشيخ التي لا تنتهي لشيء فالغبار يحط بالقرية ويخنقها ببطء، الكل يتحدث ولكن لا أحد يعرف اين يذهب، تبدو القرية مستسلمة لمصيرها المجهول المعتم، كأن قدر هؤلاء الجالسين في الظل أن يزحف عليه الوباء من كل صوب ليموتوا ببطء، يموت واحد تلو الآخر ولا أحد يعرف سبب وفاتهم، يقول

بعضهم " مات موتة عينه"، سمعه عليُ هذه الجملة مراراً لكنه لم يفهمها، كان دائماً يتساءل عن علاقة العين بالموت، كان يردد: لو قالوا "موتة قلبه" أو " موتة كبده أو كليته" ربما تكون مفهومة.
تسرد القرية آلامها ببطء، كأنها تستلقي على سرير أبيض، مستسلمة لمرض عضال، حتى زوارها لا يتمكنون من فعل شيء، لا طبيب يتردد على غرفتها، وهي في أغلب أوقاتها نائمة، تغفو لوقت طويل، وعندما تستيقظ تشعر بلا شيء، لا تشعر بجسدها المرهق، لا تشعر حتى بالألم لذلك هي دوماً مستسلمة راكدة ...
رغم كلّ شيء تسير عجلة الحياة هنا، يستمر الجالسون في الظل، كلّ يوم يأتون، تستمر الأزقة في البكاء، والأطفال يتراكضون كفراشات البساتين، تبقى جلسات الرجال في المساء وجلسات النساء في ركن فناء المنزل، يبقى النساء وهن يقمن بأعمال الحياكة للحصر، كأن الغبار لا يعني أحد حينما يحط الظلام وكأن مرض الكوليرا لم يتهدد أحداً قط.
يعود عليّ بعد يوم شاق ومتعب في اللعب مع الأولاد، يعود إلى المنزل كالطير، يعود لعشه ما أن تؤشر الشمس للغروب، مندفعاً نحو فناء المنزل، يجد كلّ شيء على حاله وأمه تستقبله بابتسامة المعهودة وبلهجة لا تخلو من عتاب شديد:

- خلصت من اللعب ... يا لله إلى الحمام علشان تتسبح.
- إن شاء الله بس برتاح شوي!

صوت حسن يناديه من خلف الباب الكبير:

- ها علي، تسبحت، خلنا نروح انصلي في المسجد ... يا لله ...
- جاي بعد شوي، ادخل اقعد وياي ...

يسترخيان على عتبة الدار حيث لا فرش ولا أثاث يمكن الجلوس عليه، يناقشان الواجبات المدرسية:

- ويش عندنا بكرة من دروس؟
- ذكرني ... أكيد علينا واجبات
- لا ما علينا شيء.
- أشوه ... الحمد لله ...

الزمن يمشي ببطء، والظلام يتسرب للقرية شيئاً فشيئاً، الأم بدأت تسخن الشاي مع الحليب للعشاء، وعليُ بدأ طقوس النظافة والصلاة بالمسجد المجاور مع حسن ليستعد ليوم جديد، الحركة عادية فالنساء يأخذن مواقعهن

في المطابخ المهترئة والرجال يذهبون إلى المسجد والهدوء يعم استعداداً لجلسات المساء ...

مساء آخر بتلك القرية، عاد الظل ليتمدد مسترخياً، وعاد كبار السن للجلوس بباحة السوق، المشهد لا يتغير، السكون يملأ المكان والأطفال يتراكضون، بعض الماعز ترعى في الأزقة، وسيارة أجرة تنتظر بجوار الباب حيث بيت علي، تشير السيارة لحدث استثنائي، اليوم يسافر أخوه الأكبر للدراسة، سيدرس " ناصر " الرياضيات بجامعة الكويت، حقيبة ملابسه وطريقة قص شعره توحي لعلي بأن ناصر سيتغير، كان يلازمه كظله حتى ذلك اليوم.

الكل منشغل بسفر ناصر، الأم تتأكد من أنها وضعت كل شيء في الحقيبة، لمَعت حذاءه الجلدي ورتبت ملابسه، لبس ناصر البنطال والقميص، سيترك الثوب لأول مرة، تساءل عليُ كيف سيخرج ناصر بهذا اللباس أمام الجالسين في الظل، قال لنفسه: إنه يبدو رائعاً، لم يكن يتصور أن أخاه ناصر بهذا الجمال والأناقة، لكن كيف سيواجه النظرات.

الأب يلح على صاحب السيارة بأن ينتظر، وأعمام علي بدأوا في التوافد إلى جلسة المساء بفناء المنزل، العمة وضعت الشاي أمام جلسة الرجال، ناصر بدا مضطرباً، يريد أن ينظر لكل شيء، نظراته تشي بعطش ملتهب، وقف ناصر صوب أخيه عليُ ...

- عليك أن تكون رجلاً من اليوم، لا تخرج إلا مع صديقك حسن.
- اطمأن سأتدبر أمري ...

شعر بالزهو وهو يشم ملابس ناصر المعطرة وكانت فرصة ليتحسس ملمسها الناعم ...

- تساءل عليُ: هل تأذن لي باستعمال كاميرتك في غيابك؟
- تمهل قليلاً ... لا بأس ولكن عليك أن تحافظ عليها.

الأم تحتضن ناصر ودموعها تمتزج بزغاريد الفرح، علي يتأمل دموع أمه وجسارة ناصر فهو يمشي مزهواً بملابسه الجديدة في الفناء، يخال إليه إنه فارس لا يهاب الأعداء، يودع أعمامه الواحد تلو الآخر بلا تعليق، يشعر عليُ أن شعاعاً أطل على القرية حين خرج ناصر بلباسه الافرنجي إلى الطريق أمام باب المنزل، بعض الفتيات يسرقن نظرة فنظرة أخرى لناصر وهو يركب السيارة،

أحس عليُ أنهن يتأملن قصة شعره، شعر كثيف في أعلى الرأس منسدل بأسفله، تمنى عليُ ان يقص شعره كأخيه لكنه لم يبح بأمنيته لأحد.

ناصـــر يطل من نافذة الســـيارة يوزع ابتســـامة الوداع للجميع، حتى الفتيات اللاتي طالما لعب معهن في تلك الأزقة رمقهن بنظرة أخيرة، تمنى عليُ أن يدعوه لركوب السيارة، لكن الأب يشير للسائق بأن ينطلق للمطار.

يعود عليُ لفناء المنزل حيث جلســـة الرجال في الفناء، الظل يزداد تمدداً وبعض النســـيم يهب ليداعب أجســـاد الرجال شبه العارية، يقترب عليُ ليستمع للأحاديث، كان ينتظر أن يكون الحديث عن ناصـــر، لكنه كان مختلفاً، كأن سفر ناصر لا يعنيهم.

بدأ التحليق في عالم آخر من وحي ما يســـمع، يقولون إن شركة ستأتي للقرية لتركب هواتف في البيوت، هل ذلك يعني أن منزلنا سيكون مثل مبنى البلدية، وكذلك سأتصل بصـــديقي حســـن وأنا في المنزل، تخيل نفســـه وهو على ســـرير مريح كما في الأفلام وهو يدير رقماً فيرد عليه حسن، سيوفر عليَ ذلك جهداً بدل أن أقصد منزله.

لا يزال الرجال يتحدثون عن شـركة الهاتف، ينسـجون قصـصـاً عن المشـاكل التي سـتحدث من جراء تركيب الهـاتف في البيوت، الرجـال بين مؤيـد ومعـارض، لكن عمه عبد الله متشدد:

- أنا أول من سـيضـع الهاتف في غرفته، تذكرون لما اعترضتم على التلفزيون، الآن من منكم لم يشتره؟

أما عمه ابراهيم فرجل يمسك العصا من الوسط:

- المشـكلة ليس في الهاتف لكن في أولاد السـوء الذين سـيسـيئون اسـتعماله، أنت يا حجي ابراهيم ما عندك بنات، بس أنا أخاف على بناتي؟

انشـغل عليٌ بالتفكير في مكان وضـع الهاتف، ترى أين سـيوضـع في ذلك المنزل ذي الفنـاء الكبير والغرف المتناثرة، الوضـع المادي لاثنين من أعمامه أفضـل من كثير من أهل القريـة ولا يعرف لمـاذا؟ ولـذلك يتحدثون عن تركيب الهاتف!
وكأن ما ينقص القرية أن تركب شبكة الهاتف، كاد الحاج ناصـر يفقد حياته على يد جاره الضـخم بسـبب فيضـان حفرة تصـريف مياه المجاري، وذلك هو الوضـع لدى كل البيوت، روائح تلك الحفر تسـكن في غرف الطين فضـلاً

عن الكهوف المصـنوعة من السـعف وأعمام عليٍ طاب لهم الحديث عن تركيب الهاتف، لكن الحديث ممتعٍ، جرَ الحديث أطراف بعضـــه حتى وصـــل للطرائف، أحد أعمامه يسرد قصة أحد وجهاء القرية الحاليين:

- ماشا الله ... الحين صار زعيم ومطوع ، لكن احنا ما نسـينا قصـــة التلفزيون الي جابه ، كان أول تلفزيون في القرية ... هذا الحاج محمد بن سلمان كان يشـتغل في الشـركة القريبة من القرية، ولأنه نبيه ومن أوائل من عمل بالشـــركة فقد أجاد اللغة الانجليزية وهذا ما أتاح له أن يحصـل على وظيفة جيدة مكنته من شـراء هذا الجهاز السـاحر ... لكن كانت المشـكلة شـلون يدخل به المنزل ، والتلفزيون كبير وما ينحط تحت الثوب ، يقولون أنـه انتهز فرصـــة غيـاب أبيـه في السوق فأدخل الجهاز خلسة لغرفته، ولأنه كان يتمتع بخصوصية في غرفته فقد ظل أياماً مستمتعاً باستراق النظر وهو لم يكشـــف بعد ، غير أن أباه الذي كان يوقظه كل يوم لصـــلاة الفجر قد ســـاوره القلق وهو يسـمع أصـواتاً غريبة تأتي من تلك الغرفة ، فما كان منه إلا أن داهمه فاكتشـــف ما أخفاه، وياله من يوم حين فرَ الحاج محمد بن ســـلمان وأبوه يركض خلفه بالخيرزانة.

الجمع يقهقه على ذلك الحدث الذي يرويه العم للمرة المائة ربما، لقد سمعه عليٌ مراراً لكنه يسمع في كل مرة شيئاً جديداً، لقد تضخمت القصة حتى تحولت لرواية من تراث القرية العتيدة.

انسحب "عليُ" قليلاً إلى هامش الفناء حيث تتجمع طيور الحمام استعداداً للجوء للأقفاص فهي بفطرتها تدرك أن الليل قد اقترب، في هذه الأثناء القرية مسترخية على رمال مبللة، كامرأة فقيرة تتجلبب بخرق بالية لكنها لا تدري كم هي ممزقة، منقطعة مع نفسها، تتوهج في النهار، وتنام كالميت في الليل حيث الظلام يلف كلّ شيء، فكأنها راهب أنهكه التبتل، تستلقي على بحر من الهموم غير قادرة على التضرع، إنه جزء من تسبيحها الخافت في ذلك الظلام، لا يسمع سوى ذلك الصمت الغامض، حتى يشرق الفجر فتبدأ حكاية جديدة.

الفصل الثالث

الوجه الملائكي

مضـــت أعوام و "عليّ" يختزل بأعماقه صـــورة السيد الصـغير ورغم افتراقهما في مقاعد الدراسـة إلا أن علياً كان يلمحه بين فترة وأخرى في ســـاحة المدرســـة، لكنه يختفي بلمح البصـر، السيد الصـغير في أعماقه ذلك الطفل الذي حفرت صـــورته في أعماقه، إنه يكبر لكن عليُ لا يراه إلا في ذلك المشـــهد الســـريالي وهو يمشـــي خلف أبيه بثوبه المرقعة، تغيرت الكثير من الأمور وبدأ الصبي يتحسس أموراً جديدة من صداقاته المتعددة.

مشـاهد كثيرة حملتها تلك الفترة ومنها (جلسـة الحفرة) حيث كان يعمد هو وصـديقه (حسـن) للجلوس في حفرة بـأرض زراعيـة قريبـة من منزليهمـا لقراءة بقـايـا أوراق يجمعانها في طريق العودة من المدرســـة وفي ذلك اليوم حيث كانت الرياح شـــديدة وقد جذبت معها وفرة من أوراق المجلات وقصـاصـات الصـحف والكتب ... كان علي وصاحبه يجلسان بشكل استثنائي فقد اتخذ كل واحد منهما مقعداً غريباً وهو عبارة عن وعاء كارتوني (لبيع الموز المستورد) حيث يضع كل منهما جسمه في الوعاء بينما تتدلى رجلاهما ورأســاهما خارجه ، وكانا يتبادلان الأوراق وهما يهزان برجليهما للأعلى والأسفل.

تعليقاتهما على قصـاصـات الورق كانت متنوعة ولم تخل من استغراب لمشاهدتهما بعض صور النساء بشكل أثار استغرابهما ...

علي: انظر هذه المرأة ... يسلم لحسن ورقة مهترئة تبدو فيها صورة مثيرة غير مكتملة.
حسن: هذه ممثلة.
علي: ولكنها مختلفة عن بنات القرية.

حسن: سمعت أن الممثلات يتبادلن القبل مع الممثلين في الأفلام.
عليُ مطرق ومستغرب: كيف؟ لا لا أظن أن أهلها سيقبلون بذلك؟ هذا عيب، من يقبل بذلك؟
حسن: أنت لا تفهم، هذا ليس في بلادنا إنه في بلاد أخرى، يفعلون ذلك بشكل عادي.
علي: أنا غير مصدق، أعتقد أنه خداع، لقد قام أخي بهذه الخدعة بكاميرته، أتعلم ... أخي اشترى كاميرا جديدة، لقد التقط صورة لي، إنها واضحة جداً ...
حسن: أخي أيضاً لديه كاميرا كبيرة ...
علي: هل التقط لك صورة وجعلك فوق المنزل؟
حسن: لا لكنه يلتقط صور لأصدقائه ويضعهم فوق الجبل؟
علي: لكن ليس لدينا جبل؟
حسن: الجبل بداخل الكاميرا؟

يسرح الصبيان في عالم آخر ورجلا كل منهما تتدلى من (كارتون الموز)، ويبدأ خيالهما يسرح ....
علي: عندما أشتغل سأشتري كاميرا كبيرة.
حسن: أنا سأشتري تلفزيوناً خاصاً بي ...

علي: انظر إنه القمر ...

حسن: ما رأيك أن نلحق به؟

كان وقت المغرب قد حل وكانت فطرة الصـبيان تناديهما للعودة للمنزل ...

علي: انظر القمر يلاحقني ...
حسن: لا نحن نلحق به.
علي: دعنـا نفترق ويذهب كل منـا في طريق لنرى من يلحق من؟

يفترقان وينادي كل منهما من بعيد ...
إنه يلحق بي أنا.
بل يلحقني بي أنا لقد وصل إلى باب بيتنا.
وأنا كذلك.

يدخل الصـبيان للمنزل ليبدآ اسـتعداداتهما لطقوس ما قبل النوم حيث عليهما أن يزيلا ما علق بهما من بقايا الأرض الزراعية استعداداً ليوم مدرسي جديد.

شخصية الصبي بدأت تتشكل وكان على أعتاب الانتقال من مدرســـة القرية إلى مدرســـة مجاورة، كان عليه أن

يلبس بشـكل مختلف رغم أنه لم يكن يشـعر بالفارق بين الأقران ففي المدرسة تلك كان حال الصبية واحد تقريباً.

هناك بدأ يسـتشـعر إحسـاس مرٍّ في أعماقه، كان يتلمس جدران أعماقه كما كان يتلمس جدران غرفة النوم التي كانت تضـم إخوته الثمانية فقد اعتاد أن يرسـم بأصـابعه حروفاً لم يكن يعرف معناها، نحت وجوهاً وأشـكالاً في الملح العالق بالجدار، كان يسـامر كل ليلة ذلك الجدار وكأنه صحيفته اليومية وكان يضيف له الكثير من الآراء والموضـوعات الجديدة كل ليلة، خصـص واحداً من أقلامه القديمة للكتابة على الجدار، كان يكتب بحروف مختصـرة، يحفر في الملح العالق بالجدار كالجليد، لم يلتفت أخوته لما يفعل، ولم يكن هو من الأسـاس يشـعر بأن ذلك الجدار سيكون له قصة طويلة.

لم يكن يعرف عليٌ إنه يحفر ما كان يشـعر به في جدران أعماقه مما يراه في كل نهار من صـور للوجوه التي لا يبدو أنها عرفت الابتسامة طويلاً، في الأساس الجدار بدأ يمتلئ بالرموز التي لا يفهمها إلا هو، رموز تختصـر الزمن وكل ما يمر به.

مشـهد صـحيفة جدرانه ممتد بامتداد مشـاهد كل يوم ألفها الصـبي، يبدأ في الصـباح عندما يتصـفح صـورة عمه ذي الملامح الحازمة وهو يمشـي في عتمة ما قبل الفجر حتى يختفي ولم يكن يعرف الصـــبي أين يذهب، كـان يطلق لخياله العنان دون أن يجرأ على سؤال عمه لكنه في ذات يوم ســـأل زوجة عمه التي اعتادت على إخفاء جســـده النحيل تحت ملابسها عندما يهم عمه بضربه لأي سبب.

علي وقد اســتيقظ كعادته في الصــباح الباكر: أين يذهب عمي؟
العمة: ذهب ليبحث عن رزقه.
علي ُوقد تحير أكثر من ذي قبل متخيلاً أن رزق عمـه يجلس في مكان ما خلف عتمة الفجر وبينما كان يتأمل عمه يتوارى تدريجياً هل يجلس رزق عمي بعيداً.

العمـة: إنـه لا يجلس في مكـان واحـد، فعمك يبحـث عنـه حتى يحصل عليه ... بلهجتها المتهكمة: مسكين يطلع من الصـبح و يا ريت يحصـل شـيء ... يا بوك إلي مكتوب عليه الفقر يظل ولد فقر ...

الصـــبي وقد غاص في حيرة أكبر وهو يتصـــور عمه يطارد شـبحاً أو طائراً أو كائن خرافي في وسـط الظلام

وقد ارتفعت صـورة عمه من عم عادي لمحارب شـجاع لا يخشـى الظلام، بينما بدأ ضـوء الفجر يتسـلل إلى الحي وهو ينظر إلى حيث اختفى العم.

الصـــبي: أين عمي، لا أراه يا عمتي هل ذهب يصـــطاد رزقه بعيداً؟
العمة: إيه ... إيه راح بعيد ...
يتخيل أن عمه المحارب لا ينام، يتخيله وقد ربط بطنه وحمل سيفاً ليصطاد ذلك المخلوق الذي يطارده، يتوه في تلـك الخيـالات، لكنـه بفطرتـه عرف أن زوجـة العم قد تضـايقت من أسـئلته الكثيرة حينما أرخت بجسـدها على بساطها الخوصي وأشاحت بوجهها إلى الجدار بينما كان يسـمع تمتمتها وهي تقول: خلنا أنام شـوي، ذبحتنا بعمك ما أدري مفكرنه طرزان لو ويش.

الصـــبي يتعجب، لماذا تبدو عمتي مســـتاءة من بطولة زوجهـا، أليس عليهـا أن تفتخر بـذلـك المحـارب الفـارس الشـجاع، يبتعد عن دار عمه التي أخذت زاوية من البيت المشـــترك ليطل على الطريق وقد بدأ النور ينتشـــر ... يجلس على عتبـة المنزل متـأملاً ذلـك الهـدوء الـذي يلف منازل القرية وأصوات بعض من استيقظوا وهي تخترق الجدران الصخرية.

يطلق الصـــبي لنفســـه العنان للتفكير قبل أن يقطع حبل أفكاره صـــوت زوج عمته في البيت المقابل وابنه يخرج من المنزل لعمله الذي لم يكن يعرف الصـــبي أيضـــاً ما هو، لكنه على الأقل وبخلاف عمه يعرف أن ابن عمته يعمل (حمالاً) في مكان ما دون أن يدرك ما الذي يحتاج الناس لحمله وكان كثيراً ما يســـأل: لماذا لا يحمل الناس أشيائهم ويحملها ابن عمتي عنهم؟

كالعادة كان زوج العمة الضـرير يخرج مصـطحباً الابن لخارج الطريق وكان صرير الباب القديم يبلغ الصبي إن المشـهد قد بدأ إذ يعدل الشـاب ابن عمة علي (غترته)، وخلفه زوج العمة وهو يتلمس الجدار، المشـــهد اليومي الذي ألفه الصـــبي أن يمســـك الابن بيد الأب وهو تتلمس الجدار الطيني المتصـــلب لاحقاً بابنه، لم يعد المشـــهد ســـريالياً لكثرة تكرره، الابن يطلب من الأب أن يتوقف والأب يرفض حتى يصـــل لنهاية الجدار مودعاً الابن وكأنه يرى خطواته، لغة ما كانت بينهما لم تكن الكلمات تســـتطيع التعبير عنها، وفي ذات الزقاق الذي اختفى فيه العم يختفي عيسى ابن العمة والصبي لا يزال جالس على عتبة المنزل ليطرق سـمعه صـوت صـديقه حسـن وهو يطل من زاوية زقاق منزله.

علي ... علي ... علي، ينادي حسـن وهو يمسـك بركن منزل جاره: لبست ثياب المدرسة؟

علي : لا ... بعدي ...

الأم وهي بداخل المنزل تسمع صوت الصبي وتطلب منه الدخول للمنزل للاستعداد للمدرسة وهو يقول لحسن: يا لله روح البس ثيابك عشان نروح المدرسة ...

زين ...

زين ...

زين ...

مع الوقت ضمر فيه الإحساس بالمرارة من مشهد السيد الصغير ربما لأنه ذهب في أعماق بعيدة صعب عليه التفتيش عنها، لكن شعوره بالألم ظل يلازمه في الكثير من المواقف التي كثيراً ما كانت تنهي عزلته أو شروده بين النخيل وهو يطارد العصافير الصغيرة، هذه العادة ظلت تلازمه حتى حينما ذهب للمرحلة الثانوية

حين كان طقس مذاكرة الدروس لديه لا يكتمل إلا بالكتاب وفخ العصافير.
صـــورة الســـيد الصـــغير تذهب بعيداً في أعماقه، يظنها تتلاشـى لكنها في الواقع تزداد تجذراً، يشـعر بذلك حينما تعود له بوضـوح في أحلامه، السـيد الصـغير يغذ خطاه خلف أبيه والدجاج يتطاير خشـــية أقدام الســـيد النحيل، رقعة ثوب السـيد الصـغير بلون مختلف تزداد وضـوحاً، تحولت من اللون الرمادي إلى اللون الوردي، كأنما كان في أحلامها يزيدها تناقضاً.
ذات يوم والصـبي عائد من أحراش النخيل المجاورة وقد تأبط كتابه بيد وأخذ يلاعب فخه بالأخرى شـــهد من بعيد منظراً لا ينســـاه بين جـارين من جيرانـه، جـار مفتول العضـلات يقود جاره النحيل إلى خلف منزله ... الصـبي وبحدسه عرف أن شيئاً ما يحدث، أخذ زاوية بعيدة لينظر للمشـهد، الجار المفتول العضـلات والشـرر يتطاير من عينيه يخاطب الجار بلهجة حادة.

رغم أن الصـبي لم يكن يسـمع بوضـوح لكنه ومن خلال حركة الشـــفاه ترجم ما قال: طالع ... طالع ... طالع .... وهو يشير إلى حفرة تصريف مياه المجاري لمنزل الجار وقد فاضـت حتى وصـلت لقرب باب الجار الضـخم، مرة أخرى يترجم الصـبي الكلمات دون أن يتمكن من سـماع

الرد: ما عليه ... ما عليه ... ما عليه ... الحين بتصــرف ...
يرد الجار الضخم: الحين؟
المشهد لم ينتهي ...

يهم الجار النحيل بالتحرك صوب باب منزله ربما ليجلب عدة العمل ليصـلح ما أفسـدته حفرة تصـريف المجاري أمام باب جاره، هذا هو على الأقل ما فهمه الصـبي وهو لا يزال يتكور خلف ركن منزل قريب وقد بدأت دقات قلبه تتصـاعد وخوفه يشتد من تمام المشـهد، كان يظن أن الجار الضخم سيلمحه وهو يسترق النظر، الجار الضخم والجار الضـــعيف في غير عالمه، لكنه دخل في عالمهم الذي فرضته حفرة المجاري.

الجار الضـــخم يســـحب جاره من ثوبه المهترئة وهو يصرخ: أين تذهب؟
ودون أن ينتظر يوجـه لكمـة للجـار النحيـل فيهوي على الأرض ككرة متدحرجة ...

يعم عويل النساء بالقرب من موقع الحدث دون أن يتدخل أحـد فلا أحـد فيمـا يبـدو يجرأ ليخرج لمواجهـة الجـار الضـــخم وهو يهم بالإمســـاك بجاره مرة أخرى، لم يكن

ليخلص الجار من جاره سوى امرأة خرجت وهي تصرخ بهستيريا دون أن يتمكن الصبي من تمييز كلامها لتسحب فيما بدا أنه زوجها للمنزل والجار الضـــخم يتحرك نحوه ولم يكن ليوقفه إلا غلق الباب الصـــغير بعد أن ســـحبت الزوج كالكبش المذبوح.

تذكر عليُ ذلك العجوز الضـــخم وهو يمر بحماره على هذا الطريق، لكنه قال إن ذلك العجوز لم يكن يضـــرب أحداً، ضـخامة الجسـد ليسـت مقياسـاً، هكذا قال ليطمئن نفســـه، انتظر الصـــبي فترة ليتمكن من اختراق ســـاحة المعركـة التي دارت تواً إذ لم يكن ليطمئن بـأن المعركـة لن تعود أو أنه ربما يصـبح كبش فداء وهو يمر بين بابي الجارين المتواجهين...

الغريب أن الصـــبي عرف أنه يعاني من غصـــة فهو لا يتمكن من رواية ما رأى لأحد حتى وإن بدأ الحديث في الحي عن الحادثة، وفي المنزل الذي عاد له للتو كان وقع الحدث لا يزال طرياً والنسوة يتساءلن عما حدث فقد أخذ الصـــبي زاوية وبدأ يشـــعر باختناق مما رأى، شـــعر أنه غير قادر على البوح، قصـــة السـيد الصـغير لا تزال في أعماقه، وضرب الجار الضعيف ايضاً، هل سيبقى يحمل هذه الذكريات لوحده، كيف يشارك معه أحد.

بدأت صـور المشـهد تهاجمه وتسـاؤلات النسـوة التي لم تكن موجهة له تشـوش ذهنه وبدأ يدخل في شـبه غيبوبة لكنه كان يسمع من حوله.

ضربه ... ضربه ... أتصدقون ضربه
بماذا ضربه؟
بسكين ربما؟
يمكن مات حاج ناصر ...
ما فيه إلا العافية... ما في قلبه رحمة ...
ذبحه أظن؟ لو مات لعرفنا؟
لا .....
راح ...
وين ...

الصـبي انتبه وقد انتصـف الليل والهدوء خيم على الحي والنسوة تفرقن ...
الخرقة المبللة التي على جبينه أشـعرته بأن أمه كانت سـهرت بجانبه طويلاً لكن النوم غلبها، شـعر أنه مر بكوابيس أثقلت رأسه.

تأمل القمر وهو يطل من نافذة الغرفة وأخوته عن يمينه وشـــماله يغطون في نوم عميق والهدوء المر يلف كل شـــيء وأمه تتوســـد يدها اليمنى بجانبه فعاوده الشـــعور بالألم الشـديد قبل أن رأســه بالقرب من رأســه أمه ويغط في نوم عمي، ذهـب للجـدار وحفر بعض الرموز، لقد ســـجل قصـــة الجار الضـــعيف بقلمه الذي تقلص لحجم أصبعه.

استيقظ باكراً وهو يشعر بثقل رأسه وأمه تخاطبه:
ها علي صرت أحسن الحين.
علي: أحسن لكن راسي ثقيل.
الأم: كانت حرارتك مرتفعة وتهذي طوال الليل.
علي: حلمت بكوابيس كثيرة لكنني لا أذكر منها شيئاً.
الأم: مابك، هل ضربك أحد ؟
علي: لا ... لا ...

تذكر مشـــهد الأمس لكنه يعرف أنه لا يســـتطيع ســـرد المشهد ...

الأم تباغته وهو يهم بالقيام للذهاب للحمام: هل ضـــرب جارنا حجي ناصر بسكين؟
- علي: ما أدري من قال هذا ا لكلام؟

- الأم: أنت وأنت نائم البارحة ...
- علي: أوه، وماذا قلت أيضاً ...
- الأم: كنت تهدر كلاماً لا يصدق ...
- علي: ماذا قلت؟
- الأم: قلت كلاماً كثيراً لكن كأنك قلت إن حجي ناصر ضرب جارنا بوكس مثل بوكس محمد علي كلاي ... ولعب وياه ك ك ك .... رربيييي... ويش كرتريه ...

عليُ وقد تذكر أجزاء من كوابيسه البارحة: كاراتيه أمي ... هل قلت ضربه كارتيه...

- نعم

تذكر أنه حلم بأن الحاج ناصر قد نهض للجار وأدى له تحية لاعبي الكاراتيه كما شاهد في أحد الأفلام بالنادي، ثم شد حزامه الذي لم يتأمل لونه وأدى حركة بهلوانية وهو يزأر بقوة، لم ينهي حجي ناصر حركته إلا والجار الضخم ممد على الأرض بلا حراك وحجي ناصر يضع رجله اليسرى على صدره باستعلاء ويقول:
إذا كنت رجلاً فأعدها مرة ثانية ...

الأم توقظ علياً من أحلامه الكبيرة وهي تقول: أنت شفت جارنا وهو يضرب حجي ناصر؟
علي: لا ... نعم رأيته من بعيد ...

الأم: لا تحكي القصـــة لأحـد، يوم يضـــاربون ويوم يتصـالحون أنت صـغير ما عليك منهم، وبالذات الضـرب بالسكين؟
علي: جارنا الضـخم لم يضـرب الحجي ناصـر بسـكين يا أمي ...

ضربه أو لم يضربه ... أنت لست معني بالأمر ...

أقفل النقـاش وعلي يحس بمرارة داخل جدران أعمـاقه الذي تيبســت من مشــاهد الفقر والبؤس التي أضــرمها شــعوره تجاه الســيد الصــغير، وفي ذلك الحين لم يكن يعرف بعد إنه قد بدأ ينســج حكاية طويلة مع الفقر المدقع الذي تعيشــه قريته، الفقر الذي يغلف كل شــيء ولا يعود لأي شيء فيها طعم.

لم يكن يعرف أنه يناجي القمر كل ليلة هرباً من رائحة المســتنقعات والغازات الخانقة التي تأتي من الشــركة المجاورة.

لم يكن يعرف إنه يحفر كل يوم يومياته على جدار الغرفة ليكتب يوماً ما في صحيفة يقرأها العالم عن وحشة الفقر.

لم يكن يعرف إن أعماقه تحولت لغابة من الظلام والعتمة والألم تتراكم فيها أكوام من مشـــاهد غير منتظمة لكل شيء ... للرجال والنساء والأطفال والجماد بالقرية.

أضــاف اليوم قصــة الجار الضــعيف ولا يدري إلى متى وما هي القصـــص التي ســيكتبها هنا في هذا الجدار، لا يعرف لماذا كان يحفر تلك الرموز؟

توفي عمه وبدأت عتمة الفجر تشــكل له طلاســم أكبر أصـــبحت تطرز أعماقه، لا يزال يجلس على عتبة باب منزله وابن عمته عيسى يخرج برفقة أبيه الضرير، بدأ يطل من نافذة غرفة قديمة على الطريق ليرى النور يتسلل إلى أزقة القرية، وكان يطل مع النور وجه ملائكي مشرق جعله يشعر لأول مرة بخفقان قلبه.

هو الآن على عتبة مرحلة جديدة فقد انقطع عن لعب كرة القدم مع زملاءه وبدأ يشــعر بحلاوة قراءة كتاب التاريخ بعد أن قرأ العديد من الكتب في مكتبة أحد أقاربه، بدأ ينفتح على عالم جديد، شـــعر به عندما توقف معلم الفن بالمدرسة الثانية أمام درج جلوسه متأملاً رسم كاريكاتير الذي كان للتو يكمله.

سأله المعلم بابتسامة: ما هذا؟
علي: إنه غول .....
المعلم: غول ... رائع صورت الغول بشكل رائع؟
المعلم: ولماذا ينهش الغول هؤلاء الناس؟
علي: إنـه غول الفقر ينهش الكثير من أبنـاء القريـة التي أسكن فيها ...
المعلم: تستحق عشر درجات على هذه الصورة الرائعة يا علي.

بدأ يألف إطلالة الوجه الملائكي الذي حرك فيه مشـــاعر ناعمة أنسته الكثير من المشـاهد الداكنة بداخله، إنه وجه بنت الجيران زينب التي كانت البراءة تشـــع من وجهها حتى يكاد ناظرها يخالها ملاك تائه ...

ظل علي يســامر شـقاً من نافذة غرفة تطل على الطريق بدءًا من ســـاعات الفجر الأولى حيث يبدأ الفجر يلامس الزقاق المطل على المنزل فتبدأ ملامح الباب الخشـــبي لمنزل الجيران تتضـــح وعلي يتأمل تلألؤ حبات الندى على قبضــة الباب الصـدأة وشـيئاً فشـيئاً يدب النور حتى تصـل الســاعة الســادســة والربع لتخرج زينب ككتلة من نور خافت خفوت ضوء الفجر الدافئ الرطب.

كان يكتفي بأن يلمحها لخمس ثواني وهي تنسل من فتحة باب المنزل لتدخل في الزقاق ثم يتعذر عليه رؤية ما وراء شق النافذة الذي يتسمر أمامه وكانت كل مشاعر الدنيا تجتمع مع مشية زينب التي لم يكن يتأمل قسمات وجهها إذ لم يكن يرى سوى شيئاً ملائكياً في صدره، ولم يكن يجد تفسيراً لهذا الشعور الغريب.

عالم آخر هو ذلك العالم الذي نسجه لنفسه مع الفتاة التي شكلت حلماً له، إنها زينب ابنة جاره الهادئ الطباع، الصامت أبداً، أمها تلك المرأة الجميلة رغم مشارفتها على سن الخمسين إلا أنها تضج أنوثة ونضارة، عادة ما تجالس والدة علي في الفناء البعيد المخصص للنساء حيث يتبادلن الأحاديث الغريبة والخرافية، كان عليٌ لا يسمع صوت ذلك الجار إلا حينما يأتي عندما يتأخر الوقت لمناداة زوجته، يبدو أنهما منسجمان مع بعضهما وهو ما أضفى على نفسه روعة أكبر تجاه زينب.

كان يحسها كنسمة في فضاء متخيل لا واقع له يشعر أنها لا تتحدث أبداً، كأن صمتها زينة لا متناهية، دون تتبسم تتفجر وداً، ودون أن تتحدث تشع بمعاني كثيرة لقلبه المتعلق بها، أحسها شيئاً من عالم آخر.

رائعة هي دون كل فتيات الحي، لا يتذكر الكثير منها في طفولتها، ربما كانت منطوية في دار أبيها، هو يتذكر فاطمة التي كانت تفضل اللعب معه طفلاً من بين

الأقران، كما يتذكر هدى تلك البنت الشـــرســـة التي لا تخشـــى الصـــبيان، لكنه لا يتذكر هذه النســمة الرائعة، لم يرها إلا من خلال هذا الشــق الذي أدمن على مســامرته ليراها للحظات لكنها لحظات تفوق الوصــف، المشــاعر التي تتدفق منه وهو يراها كجدول متدفق يترقق في حقل مخضر والطيور فيه تغرد.

لا يذكر لها ملامح لكنها يتخيلها كشـــاطئ هادئ زرقته تعانق الأفق البعيد، كأنها بلبل لا يغرد، أثرت فيه كثيراً وشغلت فيه الكثير، ربما هو بطبعه سريع التأثر للمناظر الجميلة، ربما هو بطبيعته يألف الهدوء والرقة وفيها فيما يبدو من ذلك الكثير.

لكنه ومن خلال الشـــبه بين زينب وأمها يخمن أن خلف ذلك الوجـه المطرق للأرض دومـاً فتنـة كبيرة وجمـال أخاذ، هكذا توقع رغم أن اللحظات التي تتيح له أن يلمح من بعد لا تمكنه من معرفة تفاصيل ذلك الوجه الملائكي، لكن وبرغم ذلك وبحســه الرقيق يتخيلها في لوحة ملونة، يرســم ملامحها بظلال القرية التي تمتد كل يوم، برماد " ســريدان " زوجة الحاج أحمد، يرســم عينين ناعســتين ببراءة كبراءة الماعز الصـــغيرة، ووجهاً بملامح أمها إذ صار يسترق النظر لها وهي تجالس أمه في ذلك الفناء.

وجدها جميلة كما لم يرها من قبل، عيناها التي يلمحها لأول مرة إنها بلون الشاطئ الرملي تبدو شفافة، وخداها كصفحة بيضاء، تميل للامتلاء وتضج بأنوثة صارخة، لم يكن يعرف أن أم زينب بهذا الجمال، رغم أن إمارات الكبر قد تسربت لوجهها كمن لفحته شمس لاهبة إلا أن نضارتها لا زالت مستقرة بذلك الوجه العابس.

نحت الجمال في عينيه وقلبه مقاييس مختلفة، ساحل القرية وكأنه بساط حسناء متبرجة، والنخيل الكثيف خيال عيني فتاته الجميلة، ولحظات الفجر التي تسكت في أعماقه كل يوم كلحظة ولادة القمر كل ليلة، تحولت أعماقه لبلابل مغردة في بستان أخضر بهيج، لا يعلم لماذا تحول كل شيء فجأة، كأنما تفتحت الورود في طريقه.

أخذ ينحت بقلمه بعض الكلمات ... يجرب الخواطر والقصائد، يشعر أنها تتناغم مع إحساس يتخفى بداخله البعيد، أحياناً تعود صورة الصبي وأحياناً تذوب كالملح في ظلمات تسكن بأعماقه الغائرة، كلما عاد للجدار وقرأ رموز قصة السيد الصغير يعود له الألم، لكنه يتركه جانباً ويحفر رموزاً جديدة لوجه زينب ...

لجلسة النساء تلك طعم آخر، تحضر الملائكة والشياطين فتجلس على الجدار، تطل على النســـوة كما تقول زوجة عمه، تلك المرأة الشـــديدة التي كانت تتقن فن رواية القصص الخرافية، كانت كلما أظلم الليل على الجالسات تبرعت بســـرد رواية عن الجن ليفزع عليّ ويذهب للنوم مع إخوته، لكن تلك المرأة لم تكن تعلم أن علياً أدمن على سماع رواياتها الخرافية التي تنسجها، اصبح يعشق تلك الروايات فقد صارت تغذي مخيلته...

يتذكر جيداً قصة الجني الرجل " السويكن " هكذا تسميه لأن أظافر يديه عبارة عن سكاكين حادة، وهو يلبس قبعة سحرية يسيطر عليه من يتمكن من أخذها خلسة ولا أحد يتمكن من أخذها عنوة بالطبع، ذلك الجني ليس شـــريراً كما تقول ولكنه مخيف للأطفال فنظراته حادة ويمكن أن يغضـــب على الطفل الذي لا يطيع أمه، هو أليف ولذلك عادة ما يطيب له الجلوس على الجدار إذا تأخر الليل، لقد اصـــبح يتخيل ذلك الجني الهادئ وهو يجلس على جدار المنزل كل يوم، تخاطبه زوجة عمه :

- انظر عليُ ... انظر إلى الجدار ... ها هو حضـــر ليجلس فوقه ... إنه ليس مؤذياً إلا إذا غضب!
- أين هو؟

- إنه جالس على الجدار في الزاوية المظلمة تماماً ... في العتمة هناك ... إنه يكور جسده ...
- لقد رأيته بالفعل ...

ينســـحب إلى الجوار حيث غرفته مع إخوته يتدثر وهو يرسم صورة الجني الطيب وقد نجح في عدم إثارته بينما يختلي النسوة في أحاديثهن بحرية ...

بينما بدأت تدب في نفســـه المتعة بالنجاح بعد أن تمكن من اجتياز امتحان مادة الفيزياء التي طالما كرهها بـدرجـة كـاملـة وفي نفس الوقـت أصـــبح من التلاميـذ المفضـــلين لدى المعلم في مادة الرســـم ، كان يشـــعر بالمرارة التي يبعثها منظر السيد الصغير في أعماقه كلما شـعر بمحاولة أحد زملاءه في الصـف لاسـتضـعافه ولم يكن يعرف السبب ، في الفصل حيث كان يطل من النافذة على بـاحـة بـالطريق وعدد من المحلات التجـاريـة التي تنتهي إلى المدرســـة الثانوية للبنات حيث بعض الفتيات يترددن على ذهاباً وإياباً للمدرســـة ، عرف أخيراً أن مقعده صار قبلة لبعض الطلبة الذي وجدوا منه نافذة تطل على الطريق لمحـاولـة محـادثـة الفتيـات وهن يعبرن الطريق ، وكان ذلك يســبب له الضــيق إذ كثيراً ما يعمد

طالب قوية البنية إلى إزاحته من مقعده ليتمكن من مراقبة الفتيات ، لكن العالم الجديد الذي اكتشفه بسبب قصة هذا المقعد كان أكبر مما توقع ، الصدفة قادته وهو صاحب الذهن القروي البريء إلى معرفة سر المقعد بعد أن كان يظنه زاوية رؤية لفتيات المدرسة فقط .

في جلبة كبيرة بين الحصة والحصة وقف أمامه طالبان ... وبلكنة أخرى خاطباه :

تبي تسجل في معونة الشتاء.
علي وقد شعر بالحنق من السؤال: لا ...
فردا عليه بطريقة ساخرة: ليش من شكلك فقير، ليش ما تبي تسجل؟
علي وقد ازداد حنقاً وتذكر كيف كان أبوه يضع في جيبه ديناراً كاملاً ليدفعه للفقراء في معونة الشتاء عندما كان طفلاً: أنا مو فقير ولا تسجلني لأني ما أبغي معونة.

الطالبان يبتعدان وهما غير عابئين ليخاطبا الطالب الآخر، إنه ميرزا الذي اعتاد الصمت ووضع لفافة على رأسه في الصيف والشتاء: ها انسجل اسمك إنت ولا لأ بعد؟ وكان يصر على حرف لأ ...

لم يسمع علي جواب ميرزا فقد شغله الطالب جمال الذي يكلمه لأول مرة قائلاً: عجبتني علي، ما عليك منهم هالمغرورين ... وبابتسامة كبيرة جلس بجانبه ...
يعرف علي أن اسمه جمال وهو من العائلة الحاكمة وكان يراه شخصاً غريباً لكنه تعجب من جلوسه بجانبه، دار حوار سريع بينهما.
تعرفني: أنا جمال
علي: أيه أعرفك اسمك ...
جمال: من وين علي.
علي: من قرية الساحل ....
جمال وبعد حديث ودي وتعارف: شرايك في رسوماتي، أنا فنان بس المدرس ما يقدرني، أنا أشوفه وايد معجب برسمك ...
طالع رسمي ... شرايك فيه ... يريه بعض اللوحات التي عرف منها أن جمال فنان ماهر ...
علي رسمك عجيب ... واجد ...
عدد من اللوحات يقلبها علي فيعرف أن جمال فنان حقيقي لكن مشكلته مع المدرس أنه يرسم ما لا يعجبه فقد أدرك عليُ أن المدرس ومن خلال حديثه شخص منحاز للفن الموجه ...

علي: رسمك واجد زين بس المدرس ما يبغي هاللوحات ...
جمال: ليش؟ وهو مستغرب.
علي: تدري أرسم مرة ثانية المحلات التي نطل عليها من نافذة الصف، ارسم الخباز الشايب ...
جمال: فكرك جذيه ...

نشأت بين جمال وعلي صداقة وعلاقة وطيدة بسبب الرسم فقد أدرك جمال طريقه للنجاح في موهبته مع المدرس ورغم أن جمال كان يري علياً لوحاته التي تصل لدرجة الفحش أحياناً إلا أنه كان يسلم المدرس ما يرغب فيه.
علاقته بجمال على غرابتها أشعرت علياً بما يمكن أن يفعله وبما يمكن أن يكون في علاقاته وقد فتحت ذهنه على صور زملاءه يتفرسهم لعله يرى فيهم صديقاً أو زميلاً.
جمال بوجهه الباسم بعث فيه الثقة بالتعامل مع أشخاص ينظر إليهم وكأنهم آتون من كوكب آخر ، لطالما قال له صديقه حسن أن يبتعد عن الحديث مع جمال، لكنه وجده طيب السريرة ، لين المعشر ، حتى طريقته في الفحش لم تكن مبتذله ، وجده فناناً لا يضع أي قيد على ما يرسم لكنه لم يكن كشلة رائد، تلك التي أدمنت التلصص على

الفتيات والتحرش بهن من خلف نافذة الفصل حيث يجلس هو بالتحديد ، كان يرتاح كثيراً للحديث مع جمال فقد شـــعر معه بألفة افتقدها مع زملاء كثيرين ، حتى في الجانب الإنسـاني كان يألف الحديث مع جمال فهو يشـعر معه بالندية رغم الفارق المادي بينهما:

- علي ... أنت فنان وأنا متأكد أنك بيكون لك شأن كبير في المستقبل.
- وأنت أيضاً يا جمال.
- شوف يا علي، خلني أقولك شيء، ما عليك من هؤلاء الذين يحاولون أن ينتصـوا منك، أنت بالعكس إنسـان مجد وناجح وسوف تشق طريقك للمستقبل.
- أنـا لا أهتم بهم، ولكن يحزنني أن يتعـامل زملاء لي بمقاييس المادة، أنا غني بما لدي من عزة.
- صحيح ... صحيح، الفلوس تروح وتجي بس الإنسان هو الرصـــيد الحقيقي، وكل ما حققت نجاح صـــرت أكبر وأفضل.
- بس لا تدير بال من هؤلاء المتغطرسين؟
- أنا لا أدير لهم بالاً، يكفي أني أتجنبهم، واشـق طريقي للأمام، ألا ترى معاملتهم لميرزا المسكين؟

- أشوف ... إنه لا يستحق ذلك، لكن ماذا تفعل، هؤلاء شلة فاسدة أدمنت السلوك السيء ... وعلى ميرزا أن يكون قوياً.
- ميرزا مثال لمن يستسلم لوضعه ويجعل أمثال هؤلاء يسيئون له.

بالعودة لكرسي الصف الذي جلب له شرار الفصل الذين بدأوا يضغطون ليبدل علياً كرسيه المطل على النافذة، علي بدأ يشعر أن شريكه في المقعد كان هدفاً لهؤلاء فقد استغرب تردد المجموعة على الكرسي حتى في الأوقات التي لا تمر فيها فتيات المدرسة وتدريجياً عرف أنهم يستهدفون شريكه، الشريك كان وسيماً بشكل لافت وكان لباسه الأنيق يشي بأنه من بيئة أخرى غير القرية، ولأن الضغوط بدأت تتزايد فقد اختار عليُ أن ينسحب من المكان.

دعاه زميله سعد وهو أحد زملاء الفصل ممن تبدو عليهم علامات الغنى، سعد الفتى الوسيم الأسمر، صاحب الابتسامة الرقيقة والشخصية القوية، كان يألفه كثيراً ويشعر تجاه بود وكان جلوسه لجانبه سبب في نشوء صداقة مميزة بينهما.

بنهاية العام كان علي يجلس مع حســـن والصـــمت يلف الغرفة المعتمة التي تنحيا فيها ليســـتمعا للنتائج حيث لم يكن يخرق الصمت إلا صفير الهواء المتسلل من زجاج نافذة الغرفة المنكسر ...

المذيع يقرأ أســماء الناجحين أبجدياً يتلو زملاءه دون أن يســقط اســم منهم والقلق يتســلل إلى قلب حســن وعلي تدريجياً وسرعان ما يمسك حسن بيد علي وهو يضغط عليها والمذيع يتلو أسماء ... حسن ... حسن ... وبسرعة يقفز قفزة في الهواء وعلي لا يزال يتسمر بجانب المذياع ، يعود حســـن وقد امتلأت عيناه بالبكاء والقلق قد أجهد علياً ...

حسن يتمتم : يارب ... يارب ...

المذيع يصــل لحرف العين وبســرعة يقولها: علي محمد .....
يحتضنان بعضهما وهما يقفزان: نجحنا .... نجحنا ... ثم يدلفان لفناء المنزل وهما يصـــرخان: نجحنا ... نجحنا والأم ترد: مبروك يا ولدي ... علي يتأمل كل شـــيء في الفناء ويرغب في تقبيل كل شيء حتى الماعز الصغيرة

أخذها بيديه وقبلها وقال لها: نجحت تدرين لو ما تدرين ....

عليُ وحســـن وقد شـــعرا بالإجهاد من احتفالهما على طريقتهما الخاصـــة يجلســـان على عتبة المنزل وهما يأخذان شـــهيقاً وزفيراً عالياً: ويش حســـن ويش بنســـوي باكر ...
نـذهـب للوزارة انشـــوف المنح والبعثـات لازم نروح الجامعة ونتخرج ...
بس من الصـــبح نطلع علشـــان نلحق على ســـيارة النقل العام.

في الصـــباح الباكر يحمل عليُ كل ما لديه من أوراق ويضـع يده في يد حسن ويتجهان صـوب العاصـمة وهما تحت نشـوة النجاح يشـعران بأنهما يقفزان في الهواء ... وعلى صـــوت الحافلة يتجاذبان أطراف الحديث وكل منهما يمسك بكيس قديم به هويته وأوراقه الثبوتية ...
لم تكن الحافلة مزدحمة فقد تمكنا من الحصول على مقعد مع بعضـهما، الأصـوات تصـم الأذان، والوجوه الغريبة تملأ الحـافلـة، يتـذكر أنهمـا دفعـا قيمـة تـذكرة الركوب عشـرين فلسـاً وتسـلما ورقة صـغير لكل منهما، أعطاهما

السـائق الممتلئ التذكرتين وهو ينظر لهما من طرف عينه، لم يفهما ما معنى ذلك لكنه أشار لهما بالجلوس.
علي: جبت جوازك وبطاقتك ...
حسن: جبت كل شيء . وأنت؟
علي: أنا بعد ...
يدخلان قاعة كبيرة احتشـد فيها أعداد كبيرة من الطلبة، الكل منشغل بالتعرف على فرص البعثات.
تقع عيناه على صديقه سعد ...
- هلا سعد
يأخذه سعد بالحضن فيشعر عليُ بدفء خاص ...
هلا علي، وينك ياخوي افتقدتك كثيراً ... ما تسـأل ولا تتصل؟
علي يبتلع الغصة بداخله وهو يحاور نفسه، اشلون اتصل وبيتنا ما فيه تلفون، يحاول أن يبوح له لكنه يتردد فيقول: وأنا بعد مشتاق لك بس الظروف ...

سعد: خلصت ولا بعدك؟
علي: توني وصلت للحين ما سويت شيء؟
سـعد: أنا خلصـت وصـلني الوالد من الصـبح، من أول الناس جيت، بس أنا بنتظرك، علشـان تتغدى معاي اليوم بالبيت.
ويعقب: أنت أحد موصلك ولا اشلون؟

يتردد علي لكنه يقولها: لا جاي بالنقل العام ...
زين بانتظرك لازم تجي معاي أنا وايد مشتاق لك.
علي: معاي صـــديقي حســـن عاد، خلها مرة ثانية خوك سعد.
سعد: لا أنا ملزم ، ييب معاك صديقك ...

يكمل إجراءات تسـجيله ويخرج مع صـديقه الذي شـعر بعمق صـــداقته لأول مرة بعد أن كان برفقته لعام على مقعد واحد، وفي الســيارة الجيب لا يجد حديثاً يبدأ به إلا السؤال عن بعض الزملاء.
شخبار جمال؟
ســعد: ما أشــوفه تعرف هو من مكان ثاني، أنا أشــوفه بالمدرسة بس؟
سعد يسترسل في الحديث: لا إن شاء الله نحصل بعثات زينة ونتخرج ...
علي: إن شاء الله ...

تصــل الســيارة لمنزل ســعد في القرية الصــغيرة على الســاحل وهناك يتذكر عليُ إنه لم يبلغ أهله بأن سـيتأخر وحيث جلس هو وحســن في غرفة الضــيافة على مقاعد فاخرة وقد اختليا بأنفســهما قال علي: لم نبلغ أهلنا أننا

سـنتأخر، انظر هذه المنازل الفاخرة، منازلنا نحن ما هي إلا خرائب؟
حسن: أوه نسينا، ويش انسوي الحين؟ كيف سنبلغ أهلنا؟
علي: اسـكت، ليس في منزل أحدنا هاتف نتصـل به، هل نتصل بمنزل جيراننا، لا ليس ذلك مناسباً، لكن أهم شيء نتغدى ونمشي بسرعة ...
خلاص الله يستر أول مرة نطلع ونتأخر ...

سـعد وقد تخفف من غترته وعقاله وعاد حاسـر الرأس متبسماً ...
حيا الله خوي علي وحسـن، شـلونكم، أنا وايد مسـتانس بشوفتكم ...
علي: احنا بعد ... أنت من أعز الأصدقاء ...
سعد: أنت أخو يالحبيب ...

يأخذهما الحديث وهم يتناولون طعام الغداء إلى الكثير من الأحلام الوردية بالتخرج والعمل وتحقيق الكثير من الأماني.

وهما يخرجان من المنزل تطل أم سـعد عليهما من خلف الباب: هلا بولدي علي، شـلونك ... شـخبارك، سـعد دوم

يذكرك ... وايد يحبك، عاد أنت الحين ولدي كل يوم تعال معاه.
علي وقد شـــعر بالخجل وتكســـرت الكلمات في فمه: إن شاء الله ...
أم سعد: شوف يمه سعد، كل يوم تروح الوزارة خذ معاك علي لا تخليه يروح في النقل العام، تحمل فيه يمه وســـلم على أمك ... لا تنسى ...

يخرج علي وفي السـيارة يهمس في أذن صـديقه حسـن: الله يستر تأخرنا واجد ... بنخلي سعد ينزلنا بره الديرة ...

سعد: خوي علي: بكرة بتروح الوزارة؟
علي: ما ندري إذا في شيء بنروح.
سـعد: بس بمر آخذك أنت وحسـن نروح يميع، ترى أمي تزعل منك هاه؟
علي: لا تعب روحك، بنروح وبنتلاقى بالوزارة.
سـعد: ما يمشـي هالكلام دام أم سـعد موصـيتني عليك ولا الحين إذا رديت أخبرها؟
علي: لا خلاص نروح مع بعض ...

بين قريتي علي وسعد مسافة كافية لنسج ودّ خاص، كلاهما تطلان على ساحل البحر، وتنتشر فيهما بيوت الطين، المساء هنا كما هو المساء هناك، والظلال كالظلال، كبار السن في القرية هنا يلبسون الثياب الرقيقة ويجلسون في الظل بجانب السوق الصغير، بضع محلات تجارية لا تحتوي إلا على قليل من مؤن المنزل، المهم أن يلتقي الناس حول هذه المحلات وكأن الناس لا تبيع ولا تشتري.
لا فرق بين القريتين سوى رتوش هنا وهناك، كأنهما تؤامان لا يعرفان بعضهما، البحر هنا يحتضن الشمس وبعض مراكب الصيادين الصغيرة تعانق الشاطئ الساكن، الناس بخلاف القرية الأخرى يعشقون البحر، في المساء ترى كثيرين يسامرونه، جماعات أو فردى، بعضهم وضع سقفاً من خوص النخيل ليتظلل به في تلك العصاري الجميلة، الأطفال هنا يتراقصون كالفراشات فوق الرمال البيضاء بعكس قرية عليّ حيث طلق الأهالي بحر قريتهم، " في العصر" كلمة جميلة تترد هنا، إنهم يعشقون ذلك الظل، يمتزجون به، يهمسون في أذنيه.
كان عليّ وسعد يشعران بألفة الانتقال بين القريتين ...

مرت أيام وعلي يتردد على الوزارة وقد توطدت علاقاته مع سعد وبدأ يشعر أن صداقته به أخذت تترسخ أكثر، ما

أراحه أكثر أن سـعد بدأ يعرف ظروفه وظروف قريته الفقيرة وأخيراً عرف أنه لا يملك هاتفاً يتصـل منه فكان على سـعد أن يمر به للمنزل إذا أراد أن يحدثه أو يسـأله أو يأخذه معه لمكان ما ...

علي بين نشـوة النجاح ونظرات أهل القرية وهو يركب السيارة الجيب مع صديقة ذو السحنة السمراء ليتوقف عند مسـجد القرية فيصـليان جنباً إلى جنب لم يكن ليأخذ بعين الاعتبار نظرات بعض الأهالي لسـعد وهو يضـم يديه لصدره في الصلاة ... كان عليُ لا يجد مشكلة بأن يضع التربة الحسينية ليسجد عليها في صلاته بينما سعد يصلي دونها ولم يخطر بباله أن يسأله يوماً عن ذلك.

لأيام وقد أصبح علي يصلي في مسجد قرية سعد لم يعد يشـعرا أي منهما بالفارق وألف الأهالي في القريتين المشهد وصار عليُ وسعد جزء من المسجد والطريق وصار علي يسلم على أهل القرية الساحلية بشكل منتظم وسعد يبادل أهل القرية الفقيرة السلام.

بعد أيام كان سـعد يطل من نافذة سـيارته الجيب وهو ينادي: عليُ ... علي، اطلعت نتائج البعثات ...

يطل علي من عتبة المنزل بدهشـــة وعلى وجهه ألف علامة سـؤال دون أن ينطق بكلمة وسـعد يسـترسـل في الحديث: مبروك علي حصــلت بعثة إلى دولة الكويت ... مبروك.

عليُ وقد طـار فرحـاً: الحمد لله مشـــكور ســـعد على هالبشـــارة؟ وضـــم ســـعد إليه وتســـاءل: وأنت ســـعد؟ أنا حصـــلت بعثة لأمريكا، كان بودي نكون في مكان واحد لكن ما صار نصيب.
أمريكا: ما خطر ببالي أكتبها حتى في رغباتي ...

سعد: حصلت بعثة في كلية أمنية بتخرج ضابط يا علي، بصير رزة، لا وبتكلم انجليزي عدل؟
لم يشـعر عليُ بالفارق فالمهم لديه أنه حصـل على بعثته في التخصـص التي أراده، وبينما علي يتابع سـأل سـعد: شفت صديقنا حسن ويش حصل؟
سعد: ايه حسن حصل بعثة بدولة خليجية ثانية مو معاك ...
علي: يعني أنا مع من بصـــير بروحي كل أصـــدقائي بيخلوني؟
فرح لأنه حصـــل على رغبته الأولى بأن يدرس الفنون فهذا عالمه، فرح لأن سعد حصل على رغبته بأن يتخرج

ضـــابطاً كما كان يحلم دوماً، وفرح بأن حســن ســيدرس اللغة العربية التي يحبها.
ســـعد: لا وين بروحك، كاه أختي حصـــلت معاك بنفس الجامعة، خبرك ما خلاها الوالد تطلب أمريكا، قال لها حدك دول الخليج واختارت الكويت، وعلى فكرة أختي توم معاي ولازم تتعرف عليها علشـــان تتوصـــى عليها، أمي قالت تبيك تمر البيت علشـــان توصـــيك على أختك نورة.

باليوم التالي سعد يشق الطريق مسرعاً بسيارته بصحبة عليٍ لمنزله في القرية الســـاحلية، وعلي يدير أفكاره عما يمكن أن يقوله للأم وهي توصـــيه بابنتها نورة، وماذا يمكن أن يفعل لها وهو الشخص الخجول الذي لا يستطيع أن يرفع رأسه في وجه فتاة قريته زينب وهي تهرول في الزقاق للمدرسة.

عند باب المنزل شـــعر عليُ بشـــيء من الدفء والخوف في آن، كانت خطواته ترتجف على عتبة المنزل الفخم ولأول مرة شـــعر بفخامة المنزل وبينما كان يدخل لحظ الفتاة وقد وقفت لجانب أمها وهي تتدثر بعباءة سوداء ...

الأم تســـتقبل علياً بصـــوت مرتفع وهي تمد يديها خلف ثوب مزكرش بـألوان زاهيـة: هلا بوليـدي علي ... هلا والله ...
ســـعد خلفه يمازحه: من قدك الظاهر الوالدة تحبك أكثر مني ...
علي: اسكت سعد تراني متخسبك حدي ...
أم سعد: تعال يمه ... إيلس يمي ... ترى اليوم غداك معانا ...

علي: لا اليوم ما أقدر؟
الأم: ليش ، شعندك، وبسخرية الكبار: بتبند شركاتك؟
عليُ وقد زاد حرجاً، وهو يبحث عن كذبـة يخلص بهـا نفسـه وقد تصـبب عرقاً: لا بس عندي شـغل مع ربعي ... تزايد عرقه وقد شـعر بالخجل في داخله عندما عرف إنه كذب كذبة ساذجة.

الأم: كيفك يمه البيت بيتك وانت ولدنا وما بنزيد الغدى إذا تغديت معانا .
علي: إن شاء الله مرة ثانية ...
سعد: قبل ما تسافر لازم تيينا.
علي: إن شاء الله أييكم.

التفت عليُ إنه نطق حرف الجيم ياء فشعر بالخجل فأعادها مرة ثانية:
إن شاء الله أجيكم قبل ما أسافر.
الأم: بس ما أوصيك يا ولدي على اختك نورة ترى هي معاك بالجامعة مثل ما قال سعد واحنا نعتبرك ولدنا وما وصينا عليها أهلنا بالديرة ومعارفنا احنا نبيك أنت تتحمل فيها.
عليُ وهو كالمتكهرب: إن شاء الله ...

الأم: خبرك هالزمن ما له أمان واحنا نشوفك أخو لسعد ولنورة ...
عندها رفع رأسه قليلاً فوقعت عيناه على ذلك الوجه الجميل ... سحنة سمراء تاسر القلوب، صفاء كصفاء بحر القرية، لم يتمكن من إبقاء رأسه مرتفعاً لكنه شعر بشيء ما يخترق صدره ... ظل منخفض الرأس والأم توصيه بابنتها وهي في صمت مطبق تسمع الحوار وتتدثر بالعباءة وتراقب.

عند خروجهما من المنزل سعد وقد فتح كل نوافذ السيارة وهرول بها صوب الساحل وتوقف: شوف خوي علي: أنا بروح أمريكا وأنت الكويت وبنفتقد البحر الحلو هذا بس أمانة عليك ما تنساني ومن تجي لازم نتلاقى.

علي: أخوي سعد، من يشم رائحة البحر لا يمكن ينسى أحبابه ... أنا أشعر أن الدنيا كبيرة وأخاف نضيع واحنا بعاد عن بعض.

سعد وقد وضع يده بيد صديقه: شدعوه يا خوي ... كل كم شهر بنرد بلدنا وبنشوف بعض.

- شوف يا خوي يا علي هذا الساحل هو كل شيء في قريتنا، نسهر بجانبه، ونسمر عنده، الأطفال يجدون المتعة في اللعب بجانب هذا الساحل الجميل، والعشاق يجدونه ملتقى، إنه كل شيء هنا يا عزيزي.
- لا أستغرب رغم أن البحر لدينا مكان لا نتذكره، ربما بسبب ذكرياته المرة، أو ربما لا يجد الناس الوقت للسمر معه، لا يحبه الناس كثيراً، ربما كانوا في السابق كذلك، كل ما اشعر به إنه غير متصالح مع أهل قريتي بعكس هذا الساحل.

دمعتان تتسابقان إلى خديهما وهما ينظران لبعض وهما يشعران باقتراب موعد السفر ... في ذلك الحين نظر عليُ للساحل المشع كالذهب فتذكر وجه نورة ... أخذ يسترجع ما تمكن التقاطه من قسماتها ... شعر بأنه يستطيع أن يرسم صورتها.

رسم الصورة في خياله، خزنها لوقت ما ... وجه طفولي ملائكي يزخر بالبراءة والأسئلة، قال في نفسه: ما أشبهها بالزهرة الجميلة ... تذكر بعض خصـــلات شـــعرها التي تمردت على العباءة فخرجت مســـترســـلة تداعب الهواء المنســـدل من مروحة صـــغيرة بجانب الأم ... تأمل أكثر فرســـم مفرق شـــعرها وكأنه مفرق زهرة محمدية حيث يختلط اللون بزهو بشرتها اليانعة.

غرق في بحر خياله ولم ينتبه إلا وسعد يحادثه:
عليُ ... وين رحت.
هاه نمشي ...

يالله أنا تعبان بروح شوي أريح البيت ....
عـاد لمنزلـه، تجـاوز مقـارنـة بوابـة منزلـه بتلك البوابـة الفخمة بيت ســـعد، الفناء غير الفناء، حاول ألا يتذكر ووقف منتصـــباً أمام ذلك الجدار، وأمســـك بالقلم المخبأ، رسم بعض الرموز وكأنه يرسم وجه نورة الجميل.

الفصل الثالث

ضجر القرية

لا تخلو القرية من مفارقات، رغم كل شيء، الأزقة الرطبة، والبيوت الطينية المتهالكة، والمستنقعات النتنة، والظلال تمتد وهي تكشف سيقان أولئك الجالسين في صمت، تبدأ بعض المفارقات والغرائب بسيطة، ثم تنتشر، عدة فتيات كن يتجمعن كلّ مساء في أحراش النخيل السوداء، خمس أو ست فتيات يخرجن من الحي القديم إلى حيث الأحراش، يسميها الأهالي هنا (الخيس)،

لماذا هذه التسمية، هي مواقع جميلة، وتنبعث منها رائحة النخيل، على مساحات واسعة تمتد النخيل، وفيها تحاول الفتيات أن يشـــعرن بالحياة، لكن الهمس يبدأ، لماذا، أين يذهبن؟ بعد تساؤل صامت لكن دون أن يتحول السؤال إلى ضـــجيج، ولأن منزل عليٍ يقع في طرف القرية فقد أتيح له أن يسمع ضحكاتهن وهن يوشكن على الاختباء بين النخيل، سمع بعض الهمس عن غرابة ذلك، لكنه كان يشعر أن الأمر طبيعي، يبدو أنهن يستمتعن بالسير في وسط النخيل.

لم تطل فترة تلك الظاهرة فالهمس بدأ يشـــتد والحديث بدأ يكبر ... أوه هناك من يقول أنهن يذهبن للقاء أحد ما ،،، استرق السمع ذات مرة لجمع من الشباب، كان بينهم ولد عمار ذلك العامل الذي لم يره إلا في لباس العمل الأزرق ... إنه يتباهى دوماً ب "اليوني فورم " ، سمعه يقول:

- يعني بنات يروحون النخيل بروحهم ... شيسوون ؟

آخر يرد عليه:

- يمكن يجبون يتمشون، ويشمون هوا!
- خل عنك هالخرابيط ، اشلون هم شباب مثلنا يعني ؟

- والله يا خوك هاكو شـــلل واجد تروح النخيل، وأنت تعرف بعضــهم ياخذ وياه غراش خمر ويســهر الليل بطوله!
- إيه بس هذوله شباب مو بنات؟

تعجب عليُ من منطق ولد عمار وأصـدقاءه، لكنه شـعر أن مشكلة كبيرة ستحدث إذا استمر الفتيات في الخروج لأحراش النخيل، لكن فيما يبدو وبســبب كثرة الكلام اختفت الفتيات بشكل نهائي.

الأيام الأخيرة لعليٍ قبل ســفره وقد طابت نفســه واســتقرت بعلاقته بســعد، أصــبح يجالســه كثيراً على حســاب مجالســة صـديقه حسـن وكذلك شـلة القرية التي تحوم حوله وحول صديقه، لقد بدأ مرحلة جديدة.
في جلســاتهما الطويلة كانا يضــعان أحلامها، حلم فوق حلم، يسردان من الأحلام قصصاً أقرب للورود المزهرة ... ينقشـانها على سـطح الماء المترقرق في ذلك السـاحل اللؤلؤي، لم يدركا حينها كم هو الفارق بين الحلمين:

سعد: تعرف يا صديقي علي ... أنا أحلم بأن أجوب العالم بعد أن أتخرج، أحلم بأن أحصل على قطعة أرض كبيرة أبني عليها منزل فخم.

علي: أنا أحلم بأن اتخرج من الجامعة وان احصل على وظيفة مرموقة لأساعد عائلتي، أخي ناصر ... والدي الذي يكافح وقد أصبح كبيراً الآن ...

استعداداً للسفر عليه أن يؤدي الكثير من الأشياء لكنه اهتم كثيراً بزيارة أبو سعد الذي أقعده المرض فترة في منزله وأخرى في المستشفى، كان علي وبلا تكلف يتردد لزيارة أبي سعد وبذلك توطدت علاقة عليٍ مع الأسرة فهي تجتمع عند الأب كل يوم بغرفته الخاصة في المستشفى، وكان علي يجد الفرصة ليحدث نورة ببعض الكلمات.

وهو بباحة المطار الأخيرة إلى حيث الطائرة تناوشته مشاعر متناقضة بين الشعور بالخوف من المجهول والزهو بوضع رجله على العتبة الأولى للمستقبل، لا يتذكر الكثير من لحظات ركوب طائرته الأولى فقد كان الشعور بدوار الطيران كفيل بأن يفسد عليه متعة الرحلة

ومتعة مشـــاهدة منظر الســماء والغيوم، ولكنه بدأ يتلمس الحديث مع بعض أترابه والطائرة توشـــك على الهبوط بمطار العاصـــمة الكويت حيث كان يرســـم لهذه المدينة صـورة سـريالية سـرعان ما تبددت بإطلالة سـريعة من نافذة الطائرة وهي تقتـرب من المطار.

عندما خرج من المطار برفقة زملاءه لم يكن يتوقع أن عدد من الطلبـة القدامى ينتظرون وصـــول المجموعـة بترحيب فتسـاءل في نفسـه حينها عن السـبب لكنه عرف باليوم التالي مباشـــرة إن التنظيمات الطلابية المختلفة قد بعثت باثنين أو ثلاثة من كوادرها لاسـتقبال الطلبة الجدد لمحاولة كسبهم واستمالتهم لها.

نزار وهو طالب وســـيم وقصـــير القامة كان بارعاً في كسـب الطلاب كما قيل وقد ألقى عليه التحية الأولى وقال له: كشخة ملابسك ... من وين شاريهم؟

علي وقد صـــدق الإطراء، من محل بالمنامة قرب البنك الوطني ...
الزميل: عرفته، هذا أحسن محل ملابس كشخة بالبحرين، بس مرة ثانية صـــراحة بوديك معاي علشـــان تختار لي على ذوقك قمصان ...

عليُ وهو لم يدرك بعد ما بين سـطور الكلام: أوكيه غير أنه شعر بأن شيئاً ما يدور خلفه ...

في المسـاء وقد نزل بغرفته إلى جانب زميل له دق الباب طرق خفيف وعليُ لم يعتد بعد الجو.
ادخل ...
إنه ابن قريته أحمد يحيه تحية حارة ويجلس على طرف سـريره وهو يقول: شـخبار الديرة، ما أحد مات ... ما في شيء جديد.
علي: لا كل شيء عادي، بس سمعت إن عمار بن حسن مريض ومرقد بالمستشفى ...
أحمد: مسكين حجي عمار ... ودكانه منهو يفتحه؟
علي: ما أدري لأني ما أمر السوق هالأيام.

أحمد: شـــوف عليُ ما عليك هني من أحد كل واحد يبغي يوديك صـــوب لكن خلك ذكي وشـــاطر ولا تســـوي لك عداوات ويا أحد وعلى فكرة لا تقول لأحد إني قلت لك هذا الكلام ...

يودعه أحمد بجفاء بالغ لم يتوقعه من ابن قريته الذي حل لأول ليلة بمدينة جديدة، بمر عليك مرة ثانية إذا صـــار عندي وقت؟

كانت الليلة الأولى باردة كالشتاء حيث جمدت في أعماقه الكثير من حكايات الأمس وتسللت إلى حيث فناء أعماقه تسـرح تارة في شـقوق الألم وأخرى تتسـلل إلى حيث البعيد فكأنه شـعر بتمزق في مشـاعره وضـوضـاء في أعماقه.

نام الليلة الأولى بصـعوبة ليسـتيقظ على هدير أصـوات الزملاء وهم يستعدون لفطور الصباح ...

زميل له يخاطبه: يا لله نتفطر ...
علي: بس بصـــلي وبنزل انتظرني لأني ما أعرف وين المطعم؟
زميله وهو يرمقه بنظرة اســتغراب: بتصـــلي؟ أوكيه بانتظرك بس لا أطول، كم تاخذ صلاتك؟

علي: صـــلاة الصـــبح ركعتين بس ما تـاخذ شـــيء، المفروض تقعدون وقت الآذان، السـاعة كـــــــم يأذن الصبح؟

زميله: السالفة فيها أذان الصبح، لا خوش كلام، الظاهر بتعبنا ...

علي: ما فهمت؟

زميله: لا ما اقصد شيء أقصد قعدة الصبح صعبة خصوصاً بالشتاء، صح ولا مو صح؟

في المطعم يكتشف عالماً جديداً لم يستطع تقبله أول الأمر، طابور انتظار لاستلام الأكل وطاولة وجلسة مستقيمة، لكنه سرعان ما اندمج فيه وعندما انتهى عاد لغرفته ليستعد ليوم الغد الذي سيكون أول أيام الجامعة وما ينتظره فيه من مفاجآت.

ظل في حالة من الترقب والتردد لما يحدث حوله، يشعر أن المياه تجري من تحت قدميه، لكنه يظل يترقب، تعود أن يكون فهمه الخاص، تذكر وصية والده وهو يودعه حينما قرر السفر:

- ولدي كما أوصيت أخوك ناصر أوصيك، ابعد عن السياسة ولا تمشي في درب الخطر؟

يسأل والده:
- أنت تعرفني، مثل أخي ناصـــر راح الجامعة وكل شغله الدراسة وأنا بعد رايح أدرس وبس.

ظل يتذكر وصية والده وهو يراقب الطلبة من حوله، فهم لعبة التيارات وصـــراع الأجنحة، فهم مغزى الزيارات المختلطة التي يقوم بها بعض زملاءه له، ذوي اللحى في جانب ومنتقديهم في جانب آخر.
أحد المعيدين دعاه مرة إلى ندوة ولأنه ظن أن هذه الندوة بعيدة عن التجاذبات فقد قرر الحضـــور، وعندما ذهب وجد حشد كبير من الطلبة، شعر بأن التوتر يسود المكان، وقبل أن تبدأ الندوة لمح ابن قريته أحمد:

- أحمد أنت هنا؟
- وأنت؟
تلفت يميناً وشمالاً وقال لعلي:
- ما رايك أن نذهب بعيداً للجلوس في مكان هادئ؟
- أفضل من هذا الجو المشحون.
خرجا كالمتســـللين من قاعة الندوة، ركبا ســـيارة أحمد القديمـة وانطلق بـه لســـاحل البحر، كـان البحر هـادئـاً والظلمة تنسدل عليه كمسرح أعد خصيصاً لهما، شعر عليٌ بـدفـء خـاص، فـابن قريتـه ولأول مرة يشـــعره

بحميمية خاصـــة والمكان يوحي بالدفء، هناك بدأ أحمد يبوح له بالكثير:

- أتعرف يا علي لما طلبت منك أن نخرج من الندوة، لقد مللت لعبة الطلبة، أجنحة تتصـــارع، الكثير ممن هم هنا يدرســـون في الظاهر إلا أنهم في الواقع لا يعرفون أين هي الجامعة، هم هنا منخرطون في العمل السياسي حتى النخاع، كيف يفعل هؤلاء ذلك وأهلهم بانتظارهم، أنت تعرف كيف يعيش أهلنا في فقر مدقع وهم بحاجة لمن ينتشلهم من هذا الفقر؟
- لكن يا أحمـــــد ربما يرى هؤلاء أن طريق السياسة هو طريق انتشال أهلنا من الفقر؟
- يا عزيزي علي، هذا ما يقال لكن الواقع أننا لن نزداد إلا بؤساً، أنا هنا منذ ثلاث سنين لم يبقى على تخرجي سوى عام وأشعر أننا نسير في طريق خاطئ لذلك أحببت أن أنبهك، لا تمضـــي في هذا الطريق، إنه طريق وعر وصعب؟
- لا داعي فأنا لا أرى نفسي سياسياً، أنا أقرب للشعر والأدب ولدي حياتي الخاصة!
- بالمناسبة سمعت أنك تحب فتاة من الجامعة؟
- من أبلغك بهذا، أليس هناك ما يخفى هنا؟

- تدري أننا في مجتمع صـــغير والكل يطالع، بس الي خبرني قال عرفت تختار، طلعت مو سهل!
- تبسم مكتفياً ثم صمت كعادته.

مع الوقت بدت تتكشـــف له الكثير من الأمور، لكن أكثر ما جعله يزدري من أشـياء تلك الأدوار الممسـرحة التي كان يقوم بها بعض الطلبة الذين يشـــبهون الممثلين بل أحياناً البدلاء " الكمبارس"، هم يرددون كلمات شـــبه محفوظة لديهم:

- أنت رائع ... من أين اشـــتريت ملابســـك ... تشـــبه الممثل الفلاني ،،، أنت كل البنات يحبونك ...

كلام أصبح يثير اشمئزازه، أصبح يشعر بأن اللعبة أكبر من هؤلاء بـل حتى من الآخرين الـذين يزعمون أنهم يديرونها.
تذكر ذات يوم وقد كان ينتظر حافلة المدرســـة مع جمع من طلاب الثانوية كيف تحول ذلك الجمع الصـــغير إلى تظاهرة، أحد الطلاب وقد أخرج من حقيبة كتبه عدداً من المنشـورات ورماها في وسـط الحشـد ، اسـتلم هو واحداً فوجد أعلاه مطرقـة فهم فيمـا بعد أنـه شـــعـار الحركـة الشـــيوعية ، كان قد عرف من قراءاته في مكتبة قريبه بعضاً مما يقال عن هذه الحركة ، لكنه تساءل بعقله الذي

لم يزل بعد طرياً : ما علاقة هذه القرية الفقيرة بهذا الشعار الآتي من وراء البحار ... ألا يمكن أن يكون شعار نشرة يلقيها الطلبة النخلة مثلاً فهذه القرية أكثر ارتباطاً بها ، إنها قرية فلاحين وبحارة ، فليكن الشعار أداة من أدوات الصيد .

قال هذا الرأي لزميله بدر وهو إلى حد ما مختلف عن بقية الزملاء حيث كان يلبس بشكل يوحي بأن وضعه المادي أقرب لليسر، قال له رأيه في شعار المنشور فاشعل بذلك الرأي نقاشاً حاداً ستمضي السنون ولن ينساه.

بدر الذي بدا أنيقاً وناعماً تحول إلى شاب حاد الطباع، رماه بنبرة حادة:

- هذا رأي متخلف، شنهو نخلي شعار النخلة، شنهو تحمل من معاني، احنا لازم نطلع للدنيا، الناس تتقدم واحنا نتراجع، هذا تخلف ورجعية.

رغم أنه لم يتفق مع بدر وجماعته إلا أنه تعاطف معهم، على الأقل هؤلاء فتية آمنوا بمبادئهم وتحركوا لتغيير وضعهم، هم خير من الجالسين في الظل المستسلمين لرائحة المستنقعات الآسنة، يعود للرد على ذاته: ربما لم تتح لأولئك المستريحين في ظل العصر الفرصة؟ أي فرصة ينتظرون؟ ينتظرون أن يأتي من ينقذهم من براثن المستنقعات على حصان أبيض؟ ربما يأسوا بعد أن

حـاولوا؟ ولمـاذا اليـأس؟ لمـاذا لم يكونوا كـالنخيـل التي زرعهـا أجدادهم تموت وهي واقفـة، تنكســـر ولكنهـا لا تنحني.

عليُ وقد أزعجه ذلك الكلام الكبير حاول أن يهدأ بدراً لكنه عاود:

- انت تعرف شنهو معنى المطرقة، يعني العمل والعمل الجاد ، وأن الطرق ســوف يحقق الهدف ، لكن شــنو النخلة تعمي غير الخنوع حتى تتيبس وتنتهي ؟
- بس يا بدر احنا ما عدنا طبقة عمالية علشان نرفع هذا الشعار ، كل أهلنا بحارة ومزارعين ، ثم أننا إذا أردنا أن نبدأ بعمل في أوســـاط مجتمعنا فعلينا أن نبدأه من أعماقنا ، هذه حلول مستوردة قد لا تصلح لنا .
- لا أنت عن جد رجعي بالفعل؟ المزارعين جزء من الطبقة العمالية الكادحة...
- صـحيح بس مجتمعنا طبقة عمالية مهنية مختلفة، هذه الشعارات ظهرت من قلب مناجم الفحم، لماذا نقلدهم، لماذا لا نصنع شعارنا من مزارعنا وحقولنا؟

ومع أني لا أفهم قصـدك من كلمة رجعي لكني اشـعر أنها تعني التخلف، لكن دعني أقول لك أن الأمور لا تؤخذ بهذا الشـكل نحن نناقش موضـوعاً عاماً وعلينا أن نتقبل بعضنا...

شكل هذا النقاش جزءاً من قناعاته، لكنه أيضاً يتذكر في الطرف الآخر ما دار بينه وبين أحد الطلبة الذين كان يصفهم بدر بالرجعيين ... طاب لهم بيوم أن يجلس مع أحدهم ويتعمد فتح نقاش ليستوضح بعض الأمور التي كان بدر يوزعها على الطلبة، هؤلاء الرجعيين يحرمون لبس البنطلون، تصور؟ إنهم يقولون إن شرب البيبسي كولا حراماً؟ تخيل؟ والكثير الكثير، لذلك بدأ النقاش وهو يحمل علبة الكولا دون أن يرى ردة فعل من زميله "الرجعي" كما يقول بدر:

- محمد، هل تحب تناول البيبسي؟
- أحيانا، لكن أشعر أنه يتعب معدتي لذلك أتجنبه!
- ألا يعيق شعرك المسترسل على جبهة سجودك في الصلاة؟ قرأت أن السجود يجب أن يكون على الجبهة وليس الشعر؟
- كلامك صحيح وانا أبعد شعري في وقت الصلاة!

من نقاشه مع محمد لم يشعر أنه متزمت لكنه أدرك أن التزمت أمر لا يناسبه، وخلال رحلة طلابية في المدرسة الثانوية وجد أن التزمت والرجعية وكذلك التقدمية التي يزعمها البعض مجرد أوهام، الآن وهو يتذكر طاب له أن يسميها أوهام الفقراء.

لطالما تعجب واستهجن خروج بدر ذات مرة على مسرح النادي فبدأ دون أن يفتتح بالبسملة بل قال: باسم الشبيبة،

باسم الكادحين ... في المقابل تذكر تعجبه من كلمة ألقاها محمد الذي يصفه بدر بالرجعي ليزج فيها الآيات القرآنية والأحاديث بمناسبة وبدون مناسبة فلم يعرف أهي كلمة عن العلم عن الدين؟

هكذا هي الأمور، تدور في عقله كالرحى، تطحن الأفكار طحناً ثم ما تلبث أن تستقر:

- أحياناً اشعر أنني وصلت مرحلة النضج، وأخرى أشعر أنني متردد، أمسك العصا من النصف كعمي الذي لا يستطيع ان يقول إنه يرفض أو لا يرفض تركيب الهاتف في غرفته، فهو يتذرع ببناته ليرفض ولكنه بداخله يرغب في تركيب ذلك الجهاز الآتي من وراء البحار، هل أنا نسخة من عمي بحيث أنني لا أستطيع أن أصطف مع جهة، ربما ذلك ما يعرف بالخوف.

لكن ربما هو خياري الصحيح أن أكون مستقلاً عن أي تيار، هكذا أنا وهذا هو فكري مذ كنت في الثانوية وها أنا في الجامعة لم أتغير، يشدني البعد الإنساني في أي قضية، ربما تكون قريتي وجدار الملح في غرفتي مع أخوتي هي من جعلتني هكذا.

حسم خياره بالتفرغ للدراسة والرسم، ذلك الفن الذي يجعله يشعر بالحياة، وكتابة الأشعار والقصص وحب

نورة وتذكر زينب بعد ما رأى في يوم انتخابات اتحاد الطلاب ... كان يوماً حافلاً وحاشـــداً يحضـــره المئات لانتخـاب ممثلين لهم وكـان لا يزال الزخم قويـاً، جلس على كرســـيه في وســـط القاعة فقد ذهب تلك الليلة دون صحبة ربما لأنه اراد أن يختبر قدرته على البقاء في ذلك الجو المشـحون بالتوتر ، في الأمام اسـراب من الشـباب والشـابات يجوبون المكان، دعاهم أحدهم للصـدارة لكنه أبى ، بعد فترة انتظار بدأت الكلمات الساخنة ، والدعوات الملتهبـة، لم يبقى شـــعار إلا ورفع في تلك القاعـة ،،، القومية ،،، التقدمية ،،، الاشـــتراكية ،،، لكنه شـــعر بأن بعض المتحدثين أصـــبحوا مفوهين حقيقة ، وقفت فتاة سمراء ذات شعر أجعد ، وما أن أمسكت بناصية المسرح حتى ألهبت مشـــاعر الحضـــور بالحديث عن الثورة ، وبالرغم أنها لا تتحدث عن بلد محدد إلا أنها قالت كلاماً كبيراً.

وقف آخر متحدثاً عن العمال فقال:

- أســـتطيع أن أزعم أنني ارى شـــعاع يد من هنا ، من البعيد ،،، من مســافة مئات الكيلومترات ، إنه شـعاع يـد تكـدح ، تحمـل مطرقـة في المعمـل ومحراث في المزرعة ،،، كان التصـــفيق قوياً يصـــم الآذان ، لكن علياً لم يطب له ذلك الكلام فهو يقرأ ما وراء المسرح

، يشـــعر أن حدثاً ما ســيقع ، يعلم أن الصـــراع على اشـده بين التيارات المسيطرة في اتحاد الطلبة لكنه لم يتصـــور يومها أن يشـــتد الصـــراع ليتحول إلى نزاع بالأيدي والكراســـي ،،، كان أغلب جمهور الطلبة يصـفق بعفوية ولم يعلم أن الوضـع في الكواليس كان يسـخن بسـخونة الخطاب حتى وصـلت لحظة وضـع الصـــناديق أمام الطلبة فما كان من أحد الأجنحة إلا إعلان ما يشـــبه الانقلاب بإبعاد أســـماء المجوعة الأخرى ، فوقعت الواقعة التي غادرها وقد حسم أمره بالتفرغ للشعر والحب.

عندما عاد لغرفته أحب أن يختلي بنفســـه ، لعله اراد أن ينســى ما حدث فسـرح بفكره إلى قريته ... حيث أوجاعه لا تســـتريح ... أه ... يا جدار الملح الذي طالما ناجيته ، كتبت الكثير في صفحاتك ، هي صفحة واحدة لكنها تضم الكثير من الصفحات ، اشعر أنها صفحات مطرزة بلون الملح المشـــع ، ملمســـه لا يزال يداعب قلمي لم يبقى منه إلا جزء صـغير لشـدة ما حككته بذلك الجدار التي خطت فيـه الكثير ممـا خبـأت في أعمـاقي ... آه يـا جـدار الملح ســـأعود لك يوماً لأقرأ ما كتبت ، ليتني ربطت ما أكتب بتواريخ أيامي ، يوم شـاهدت السـيد الصـغير زميلي في الفصل بثوبه الممزقة المرقعة، يوم ضرب جاري الضخم جارنا الحاج ناصـــر، أول يوم لمحت فيه ذلك الوجه

الملائكي، إنها زينب، وأول وجه أراه بوضوح كما القمر، إنها نوره ... إنها صحيفة أيامي التي أتمنى أن تصمد أمام الزمن والمطر الذي يتسلسل في الشتاء لحيث أكتب وكأنه يرغب في إخفاءه ، لا شك أنه صامد كما عهدته.

تخيل أنه أمام ذلك الجدار الخرافي المطرز بملح الأرض، حروف هنا وحروف هناك ... مرة أخرى تأوه وهو يرى الجدار أمامه ... آه يا جدار الملح يا سجل ذكرياتي المؤلمة، يتذكر كل شيء بمجرد أن يتصفح الرموز التي خطها على ذلك الجدار.

هنا سجلت بعض الذكريات عن حريق بيت حاج أحمد ، حريق أتى على كل شيء حيث لا شيء في الأساس سوى سعف النخيل الذي يستر تلك العائلة من عيون أهل القرية ، وبعض القدور السوداء ، هناك سجل في صحيفة الجدار ما آل إليه " السريدان " ، ذلك الشيء السحري الذي تطبخ فيه زوجة الحاج أحمد ، إنه بمصطلح الشقة التي يسكن فيها اليوم " الفرن " الذي يتوزع هو وزملاءه في جدول لطبخ الشاي لما بعد الأكل وأيام العطل ، لقد احترق سريدان زوجة الحاج أحمد ، يا للخسارة ، وما هو إلا وعاء دهن كبير تم ثقبه ليتشكل بقدرة أهل القرية فرناً للطبخ ، يا للمساكين إنهم هناك يبكون السريدان وسعف النخيل الذي تحول لرماد ، ربما يبكون ما فعلته

النار بذلك الجدار الساتر الذي كان يستر العائلة أو ربما يبكون شيئاً أخفاه الحاج أحمد وراء ذلك السعف، أيمكن أن تكون الثروة مخبأة وإلا لماذا البكاء والعويل؟
مرة أخرى يناجي جداره المطرز بملح الأرض ... بدأ يستعيد الكثير من ذكرياته، هنا كتبت بأناملي القصة التي رواها له عمي عن حركة أهل القرية واعتراضهم على إحدى الوافدات ، كان يقول عمه أن أهل القرية اجتمعوا لطرد تلك المرأة الإيرانية جاءت للقرية فجأة ، ويبدو من حديث عمه أن القرية تقاوم الطارئين وتتشكك كثيراً في أي قادم غريب خاصة إذا كان ذلك القادم مختلفاً عن أهل القرية ، وبين حديث عمه يختفي إعجاب بجمال تلك المرأة ، يتذكر حديثه عنها وهو يقول : إنها تشبه الرجال ، تضع على رأسها رداء صغيراً كمثل رجال القرية، المسكينة كانت تريد أن تعيش في ذلك الجو فارتدت خرقة تستر رأسها لكنها لم تكن تعرف أن أهل القرية يعيشون في عصر آخر .
انتهت القصة بطرد تلك المرأة وإعلان النصر في القرية، لكن يعود ليتذكر أن ذلك النصر في ظل انكسار في الكثير من الأحيان، نصر برائحة كريهة تأتي من مستنقعات قريبة.
لكنه ظل يتذكر امرأة أخرى كانت تأتي وهي تحمل صرة على رأسها وتجوب القرية وهي تنادي بلهجة مكسرة لم

يفهم منها ما تبيعه لكنها فيما يبدو تبيع بعض المستلزمات الصـــغيرة للمنزل كأدوات الخياطة والمطبخ وغيرها ، وكـان يرى عليُ أن أهـل القريـة يرحبون بتلـك المرأة ويـدخلونهـا إلى فنـاء منـازلهم حيـث تفرش المرأة تلـك الصـرة ، لا يتذكر أي شـيء مما في تلك الصـرة ويرجح الآن أنها تبيع مســـتلزمات نســـائية لا يرغب الأطفال برؤيتها أو لنقل إنها لا تجذبهم، ولربما كان حياء النســـاء يمنع من البوح بما تعرض تلك السيدة التي تبدو فاتنة في ما مضـــى غير أن الدنيا أخذت جمالها وحســـنها، تذكر أيضاً تلك اللعب الصغيرة التي كان يأتي بها الشاب اليافع زهير، لكنه يسـتحضـر كلام أخيه ناصـر: لا تقترب من هذا الرجل إنه يسرق الألعاب.

يغفو على ســـريره المريح وهو يلامس بذكرياته جدار الملح الذي ينتظره ثم يغط في نوم عميق.

الفصل الرابع

أيام الجامعة

في سكينة كبيرة اختار الهدوء وشبهة عزلة تغنيه عن تجاذبات الطلبة التي لا تنتهي ، أخذ يتذكر صـــديقه حسن وسعد وقريته والزقاق الذي يضم زينب وهي تغذ خطاها النورانية إلى المدرسة ... أرخى بيديه على أريكة كانت بجانبه وتأمل مصـــباحاً معلقاً على جدار الغرفة ووضــع رأســه وســرح بخياله إلى حيث قريته ، الزقاق حيث يأكل الطين الجدران وهي تنتصـــب متعرجة في صـــمت كما المريض الذي يأبى أن يســـتريح ، وفناء المنازل وكأنه أحراش تلهو فيها الأغنام والدجاج وحتى الأبقار إلى جانب البشــر ، ليس ببعيد يذهب إلى ما وراء المنازل العتيقة حيث تستقر المستنقعات وقد اخضــرت وامتلأت بالديدان .

يرفع يده فيجد أنه بغرفة نظيفة ويستريح على سرير ناعم ثم يعود ليفكر ، ماذا عن إخوتي وأبي وأمي وجيراني ، لماذا يعيشـــون هذا الحال الذي تركتهم فيه ، تذكر عندما رد على زميلي الثانوية وقد هما بتسجيله في قائمة معونة الشـــتاء بالرفض، فقال : كان لهما الحق في اختياري فقد كانت ملابســـي تدل على فقري وتذكر بوضـــوح إن من دعاه كان من عائلة غنية وكان يلبس بدلة زرقاء رائعة ، الآن عرف عليُ الفرق بين ثوبه البيضـاء التي لا تتجاوز قيمتها ثلاثة دنانير وثوب زميله التي حيكت من الحرير، الآن فقط بدأ يشعر بالغبن على نفسه حينما لم يكن يقارن بين ما يلبسه هو وما يلبسه صديقه سعد ، بينما كان يراه في بيت ســـعد من أثاث وما يراه في بيته ، لكنه يتراجع ويقول : الحمد لله لو شـــعرت بذلك لم أكن لأخرج من البيت .

تذكر الكثير من تفاصـــيل قريته الســـاحلية، لم يكن ينظر للأشـــياء على طبيعتها هناك، بيت جده معلم القرآن الذي طالما شـعر بالفخر به لم يكن سـوى خربة بكل ما للكلمة من معنى، الغرفة الطينية مجرد كهف أســـود، الرجال الذين يجلسون في الظل كانوا في حالة يرثى لها بملابسهم القديمـة البـاليـة ولحـاهم غير المشـــذبـة توحي بـأنهم لا يملكون ما يحلقونها به، تذكر أن القرية ليس بها حلاق،

لذلك عليه أن يقصـــد المدينة القريبة ليحلق شـــعره مع صديقه حسن.
قرر أن يحضـر لوحة ويرسـم القرية التي في مخيلته كل تفاصـــيلها، بدأ يرســـم بعض البيوت القديمة المبنية من الطين، الأزقة الضـــيقة مبللة بالمســـتنقعات وليس ببعيد أكوام القمامة التي تتجمع في مواقع محددة يرمى فيها كل شيء، سأل نفسه: كيف نعيش هناك؟
مرارة التذكر فتحت شـــهيته على الوجع، بدأ يســـترجع اشـــياء أخرى كان يألفها لكنها الآن تشـــعره بالألم، إننا نعيش المـأســـاة دون أن نعلم ربمـا، العـالم يحقق طفرة والنفط الـذي تحـت أرجلنـا يتـدفق ليحقق الثروات ونحن وكأننا من كوكب آخر، فتش الوجوه التي يتذكر من أهل القرية ... الحاج أحمد، حسن بن مهدي، سعيد مرهون ... أسماء كثيرة ووجوه تزدحم في ذاكرته، كلهم يلونهم الفقر والبؤس، تذكر وضع سعيد مرهون الذي يعيش مع والدته في " برســـتج "، تســـاءل لأول مرة: مـا معنى هـذا المصطلح؟
برستج ... صحيح أنها أربعة حروف ذات موسيقى جميلة لكنها تعني أن سـعيد مرهون يعيش مع والدته المسـنة في كوخ مبني من ســـعف النخيل لا يقي من برد ولا حر، صراخ والدة سعيد مرهون المسنة وأنينها وهي التي يبدو أنها أصيبت بمرض ضيق التنفس، كيف لا تصاب وهي

تنام في هذا المكان البائس، أخيراً استسلمت لمرض الزهايمر وكأنها تريد أن تهرب من واقعها.
كثيراً ما سمعها وهي تأن وتتحدث بحديث غريب لكن من يعلم بمرض الزهايمر هناك، يسمونه " الخرف " وهي كلمة تعادل الجنون، مساكين أبناء قريتي لا يعلمون أنه مرض وجيوش من العلماء تحاربه بالعلم، تذكر والدة زوجة جاسم بن ابراهيم وكيف كان يأتي لمنزل ابنته ليبقى أياماً وفيها يصاب كما يقال بالخرف غير أنه لم يكن إلا مريضاً بالزهايمر اللعين الذي ينهش عقول كبار السن في تلك القرية في صمت.
تجاوز الحاج جاسم ووالدة سعيد مرهون وذهب بعيداً إلى السوق حيث يجلس الكبار في الظل ، لطالما كان المشهد جميلاً بالنسبة له ، إنه يتأمله اليوم فيرى الكثير من التفاصيل المؤلمة ، أجساد هؤلاء وكأنها أكلها الزمن ، قليل منهم من يمشي مشية معتدلة ، كأنهم بقايا حرب طاحنة ، ذات يوم سأل والده عن سبب الإعاقات لبعض الرجال في القرية ، فكان يسمع لكل رجل قصة ،،، عمه المقعد كان ضحية سقوطه في الطريق إلى العمل ، أما خال والدته الحاج عزيز فهو يعرج بسبب شوكة غرست في قدمة من سمكة تعرف باللخمة ، تماماً وكأنهم خاضوا حربهم مع البر والبحر .

بالمناسبة للحرب قصص كثيرة لا يسمعها إلا من عمه الحاج أحمد فهو بالتحديد يتقن فن السرد، هو لا يعرف إلى اي مدى كان عمه يضيف من خياله على ما يسرد لكن حتماً هناك الكثير من الخيال، يبدو أن عمه كان يملك خيالاً خصباً.
يتذكر أنه كان يروي قصص الحرب العالمية الثانية، كان يقول: الأصحاب ويقصد بهم الانجليز ويسميهم " الحمران" إشارة إلى لون بشرتهم الحمراء يأتون كل يوم لينهبوا مخازن التمر، تذكر حديثه عن مقاومة أولئك الجنود من أهالي القرية ... إذا جاء الحمران للديرة يكون استنفار، البعض فوق المنازل وآخرين في الطرق وكلهم يدحرون الحمران كما قال.

يعود ليخاطب نفسه: الفقر مو عيب يكفي أننا نملك عزتنا وكرامتنا ...
يعود ليتذكر كيف كان زميله ابن قرية سعد يتقصد صديقه حسن وبعض زملاءه وأبناء قريته ويعيرهم بفقرهم ...

الآن بدأ يشعر أن هناك عالم آخر يختلف عن جدران الملح التي كتب فيها مذكراته ويقول: عليَ أن أعود لجدار الملح لأغير تلك الرموز التي رسمتها عليه، لكن

ليس الآن، علي أن أنهي جامعتي، أنا في البداية، جدران الملح لن تـذهـب إلى أي مكـان فهي صـــــامـدة هنـاك ومذكراتي ومذكرات أخوتي ســـتبقى محفورة في ذاكرة هذه الجدران، يوماً ما ســأهد ذلك الجدار لعلني أجد تحته كنزاً مدفوناً، لا بد أن الكنز موجود، لكن أين هو؟

تعود ذاكرته إلى البعيد حيث قصــة السـيد الصـغير وهو يغذ الخطى في فناء منزل الجد معلم القرآن بثوب بالية مرقعة، الآن فقط عاد الألم القديم له وعاد يتأمل منظر يد الجد التي حفر فيها الزمان أخاديد معبرة عن قصـــص طويلة من الكفاح تحكيها أمه له عن الجد.

رجع بذاكرته إلى حيث قارعة باب جاره الحاج ناصـــر الذي توهم في خيالـه أنـه بـارز جـاره القوي فصـــر عه بحركات بهلوانية والواقع أنه كاد يصـرع بقبضـة الجار الضـخم، أدرك أن الحاج ناصـر والجار القوي فريسـتان للفقر المدقع الذي تعيشـه القرية حيث لا شـبكة لتصـريف مياه المجاري، من الطبيعي أن تفيض الحفر التي يحفرها الأهالي، ومن الطبيعي أن يضرب بعضهم بعضاً في هذا الوضع الكريه.
لبس شيئاً ما وخرج إلى حيث الهاتف في المحل المجاور:

طلب أن يتحدث فأشـار له العامل أن يذهب للغرفة رقم 3 ،،، أغلق الباب وأدار الهاتف ،،، تحدث مع والدته أولاً ، سألها عن الجميع وخاصة أم زينب ، الأم بفريستها قالت له :

- شرايك اتجيب لها هدية هذه المرة؟

دون أن يتردد سألها:

- ويش أجيب؟
- جيب ليها ساعة زينة!

عرف أنها تقصـــد زينب فكثرة الســـؤال عن أم زينب جعلتها تشعر بذلك التودد والتقرب.

حدث أخاه ناصر وسأله:

- شخبار القرية ؟

ناصر ببرود شديد وكعادته:

- لا جديد هذه على حطتها، لا شيء يتغير ؟
- كل شــيء ،،، الحاج ناصــر وولد سـليمان ولد عمار ،،، كل شيء ما في أي تغيير ؟
- يا أخي ... كيف يصـــير تغيير والناس هني ما تبغي تتغير ؟

أغلق الهاتف وهو يرســـم في ذهنه مرة أخرى صـــورة قريته الفقيرة وهي بائســـة حزينة، لا تغيير في ملامحها، انتابه شـــعور بالغضـــب من ذلك لكنه احتاج لكتمان ذلك الغضـب، ضـغط على أنامله بشـدة، شـعر بحزن يلامس جدران أعماقه المخبأة، ازداد الحزن واشـتعل الغضـب، ألح عليه أكثر فبكى ...

عندما توقف عن البكاء كان يشـعر بألم لشـريط الذكريات وقد أجهدته وهي تنهال عليه من كل صوب ولم يدرك إلا وهو يســـمع جرس ســـاعته التي وقتها مع أذان الفجر ليستيقظ والمؤذن يصدح : الله أكبر ...
في الأثناء يطرق باب غرفته :

- من ؟
- أنا علي طه !

صديقه السوداني الطيب الذي يفيض أخلاقاً يطرق بابه ، يعرف أن هذا الصـــديق الطيب يحب الحديث معه ، لكنه ليس في مزاج للحديث :

- تفضل يا علي ،،، حياك ،،،، حياك ،،،

بلهجة سودانية رائعة :

- أنت ليش معكتف يا زول ،،، جائزة الصحافة وأخذتها ،،، ليش اعتزلت ، لازم تخرج وتشارك معانا ،،،
- اشارك في إيش يا زول ؟

- كيف ،،، انت ما عرفت أنا احنا بنعمل مسرحية كبيرة ، وأنا رشحتك علشان تقوم بدور فيها ؟
- لا يا عزيزي ما عرفت ، وأنا بالمناسبة لا أصلح للتمثيل ،،،
- مين قال هذا الكلام ؟ إنت لازم تعطي نفسك فرصة وتشوف يمكن أنت موهوب يا صديقي .

يضحك علي من عرض صديقه الذي يعزه كثيراً لكنه يصر على الرفض فهو يعرف تماماً لا يصلح لهذه المهمة ، هو يعلم إنه لا يجيد التصنع ، ولا يضحك إلا حين يكون هناك ما يضحك ،،،

- أنا أشكر لك اهتمامك ، وأعدك بحضور المسرحية لكن اعفني من دور الممثل العتيد .

جلس علي طه على حافة سرير علي كعادته ، سامره طويلاً ثم مضى ،،، نهض علي من فراشه وأطل من نافذة الغرفة يريد أن يرى الندى ويشم رائحة السدرة النحيلة التي تطل بباب منزله بالقرية محاولاً تلمس أنوار الفجر وهي تتسلل عله يشعر بما يشعر به وهو يرى زينب وهي تخرج من باب المنزل لكن دون جدوى فكل ذلك قد ذهب .

بمرور أيام الدراسة اعتاد علي على جو الجامعة وذهب كابوس الشعور بفقر قريته إلى الخلفية من أعماقه وبدأ يشعر أنه سوف يستمر في حياته بشكل طبيعي، كانت قد وصلت إليه أولى الرسائل من أخيه الأكبر وقد أعادت إليه الاطمئنان والسكينة، وكان قد كتب رسالته الأولى لأهله ... يكتبها باسم ناصر أخيه لكنه يحدث فيها كل أهله ...

والدي ... والدتي العزيزة: انا بخير، أعمل بوصيتك، أحرص على دراستي فقط كما تعلم، والدتي العزيزة أنا استمتع بوقتي وأحرص على نفسي كما أوصتني، لي أصدقاء أجلس معهم وقد تعلمت الكثير من أمور الحياة، تذكرين يا أمي كيف كنت أنام وأنا متدثر بملابسك، أنا كبرت لكني لا زلت اشتاق إلى تلك الليالي الدافئة.

والدي اعتبر ما قلته لي حكماً عرفت الآن أن الحياة وتجاربها أوصلتك إليها لكني وصلت إليها بعد عناء، أنا

الان أشـعر بالحاجة للخبرة مثلك ،،، عندما أعود سـأتعلم الكثير من أخي ناصر .
بشأن ما جرى لابنة عمتي كما أبلغني ناصر فإنني أشعر أن الحياة ما هي فصـــول، مد وجزر، لكن البحار الماهر لا يلقي بشـباكه في المياه الضـحلة، اعتبر انفصـالها عن خطيبها تجربة وستمر عليها أن تتعلم من التجربة.

بعد شــهر ونيف كانت صــورة نورة قد عاودت بالظهور إليه وتذكر وصــية الأم له ، لم يمهله عقله كثيراً فقد قرر أن يذهب ليطمأن فيما إذا كانت منيرة ترغب بشـــيء وبالفعل فقد قصـــد ســـكن الفتيات الجامعي باليوم الثاني وطلب مقابلتها .

وعلى عكس ما كان يتوقع كان مندفعاً للقاء ورغم أنه سـألها عما إذا كانت ترغب في أن يسـاعدها في شـيء ما إلا أن تغييرات طرأت عندما رحل إذ بدأ يشعر بتحولات كبيرة تجاه نورة وكانت هي تبادله الاهتمام وتؤكد على زيارته لها كل أســبوع ، وكانا يتبادلان الحديث عن الجامعة والدراسـة وكان يسـاعدها فيما صـعب عليها من أسئلة .

بنهاية الفصـــل الأول وقرب موعد الرجوع للوطن قرر أن يبوح لنورة بما يشعر به تجاهها رغم أنه لم يكن يدري حقيقة ما يشعر به ، هل هو إعجاب أم حب أم شيء غير ذلك ، رسـم لها لوحة جميلة قرر أن تعبر دون يتكلم عن كل ما يشـعر به تجاهها ، رسـمها وهي ناعسـة تطل من نافذة حين الغروب ، جسدها ومشاعر شتى تتلاطم بقلبه وحمل اللوحة يوم موعد الزيارة ومضى .

وضـع اللوحة بيدها وهو يرتجف ، تسـلمتها وابتسـامة خجلى تطل من عينيها ، نظرت اللوحة وانحنت برأسـها وصمتت ، سألها : شرايك ؟
أجابت : رسمك حلو وايد علي .
علي : هذي أنتي ، هذي صورتك !
نورة : أنا جذيه ، ما أصدق ، هذي عيونك الحلوة !
علي : إنتي بعيوني أكثر من جذيه ، انتي أجمل ، أنا ما أقدر أوصف أنتي شنهو بعيوني .
ساد صمت كبير لم يكسره سوى قرقعة اللوحة بين يدي نورة وهي تعيد تأملها وهي تقول : علي أنت شـيء كبير بالنسبة لي .

علي: وانتي بعد .

مضت العلاقة بين علي ونورة إلى كثير من التعلق، وفي أحد اتصـــالاته بأهله قال له أبوه إن ابنة عمه قد تقدم لها من يخطبها لكنها ترفض إلا إذا قال علي إنها لا يريدها فقال لأبيه: سلم عليها وقول لها توافق، أنا وين والخطوبة وين .

بين مشـــاعره الجديدة التي بدأت تتحول إلى شـــيء غير محدد وبين براعم المشـــاعر التي بدأت تدب فيه وهو ينظر لزينب أخذ شـــيء من التخالط يجوب داخله، كان كثيراً ما يرسم صورة مزدوجة من زينب الطفلة البريئة ومنيرة الجميلة ليحولهما إلى ملاك لا وجود لها وكان يسأل نفسه: ألا زلت أحب زينب ولكن كيف أحبها وأنا لا أعلم عنهما شـــيئاً، أعتقد إنني أحب نورة التي تبادلني الحب الطاهر.

تبرعم الحب في داخله ، بدأ يتنفس الورد ، ويشـــعر بلذة عســـعســـة الفجر ، ولدت في أعماقه مســـاحات من اللذة وسط ألم الاغتراب ، أصبح يهاتفها بين الحين والحين ، بدأ يندمج في جو جديد ، ذات يوم وقد خرجا في جولة نسيا فيها الدنيا ،،، قال لها :

- إلى أين ستذهب علاقتنا ؟

- لم أفكر في الموضـوع ، كل ما أشـعر به إنني أعيش أحلى أيامي معك .
- هل ما بيننا حب حقيقي ، وهل أنا أخالف وصـايا أمك عندما قالت لي أن أدير بالي عليك ؟
- من قال ذلك ، أظنك تنفذ وصـــيتي أمي وبكثير من المبالغة ، على فكرة أنا لمّحت لأمي بعلاقاتنا !
- وماذا قالت ؟
- أحس أنها مرتاحة من العلاقة لكنها قالت لي أشـــياء غريبة لم أفهمها !
- ما هي ؟
- قالت لي ألا أذهب بعيداً في العلاقة فربما لا يكون هنـاك نصـــيب ، وتحدثت لي كثيراً عن العادات والتقاليد ، ما رأيك أنت ؟
- ربما يجدر بنا أن نتأمل ما يقوله الكبار ، أقصـــد ما تقولـه أمـك ، قـد يكون هنـاك مـا هو أكبر منّـا من ظروف ، يعني لست ابنة عمي ولست من أهل الحي ولست أنا غنياً ، أنا فقير وربما يكون ذلك حاجز بيني وبينك .
- أنا مستعدة لأعيش معك في كوخ !
- يا حبيبتي ، هذا الكلام يقال في الأفلام المصـرية لكن في بلادنا ربما لا نستطيع قوله ،،،

أحســت بغصــة وهي تراه يســتســلم لكنها تعلقت بكلمة حبيبتي التي تسمعها لأول مرة منه ،،،

- الله ، مـا أجملهـا في فمك ، حبيبتي ، كلمـة لهـا وقع عجيب ، تشعرني بالدفء حتى في الشتاء ، تشعرني بالســـعادة مهما كانت آلامك ، أحس أنني أطير على جناح الهواء دون ضجيج .

أحس هو بنشـوة كبيرة ، تأمل وجهها الجميل ، أحس أنها جميلة كما لم تكن يوماً ، رســمها كلوحة في خياله ، كان شــعرها ناعماً وطويلاً ، نســمات خفيفة من نافذة المقهى تتسلل لتداعب خصـلاتها المسترسـلة ، وهي في صـمت تتفجر بابتسامة رضا عميقة ، لبست قميصاً أصفر كشف عن جزء من جمالها ، كانت نضـــرة كوردة في ســـاعة الســـحر ، أحس بدفء حنانها ، كانت كالنســـمة تهمس بحديث جعله هائماً في طلاسم ، يتأمل كفيها وهي ترتخي فوق الطاولة وكأنه ينظر لمنحوتة ، تدب فيه البهجة كلما تبسمت .

لامس يدها وهو ينظر لعينيها فتخيلها كغابة من الأسـرار فتذكر قصيد السياب حينما قال : مطر ،،، مطر ،،، مطر ، وبشكل تلقائي قال :

- عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
- مطر

- مطر
- مطر

أعجبها ذلك الوصـــف كثيراً وبالرغم من أنها لا تهوى الشعر كثيراً إلا أنها سحرت بتلك الكلمات فقالت :

- كلام جميل ، اشرح لي معانيه .
- يكفي أن تشـــعري في أعماقك بأثر هذه الكلمات فهي غير قابلة للشرح .
- أوه ،،، هذا أكثر روعة من الشعر نفسه .

لأيام وشـــهور أصـــبحا غارقان في بحار الحب ، لكن الدراسة كانت تحد من خروجهما المستمر ، انشغاله بها عوضـــه ومكنه من الابتعاد عن الأجواء المشـــحونة بالســـياســـة بين الطلبة ، اكتفى بكتابة الشـــعر العاطفي وخواطر متناثرة ، كتب ذات مرة لها وهو يجلس في ليلة مقمرة بالقرب من أبراج الكويت : عزيزتي أنا أجلس مع زميل نحتسي فنجان قهوة في ليلة مقمرة ، ينتابني شعور أني أحتاجك بجانبي ، أعلم أن أجواء ســـكن الطالبات صـــعبة وأنه ليس من الســـهل أن تكوني معي في كل الأوقات ، لكنك بالفعل معي في كل لحظة ، من الســـهل أن أقول لك كلاماً جميلاً لكن من الصـــعب أن أقول ما أشـــعر به ، بداخلي بحار من وله عميق ، ســـأصـــف لك

مشـاعري ، كأن أعماقي بحر سـاكن سـكون الليل والقمر يشع على أمواجي الساكنة .

كانت مناجاته لها في تلك الليالي المقمرة كالزاد الذي يتدفق فيه طاقة ونشـــاطاً ، لذلك اتجه لقراءة الروايات والقصـــص فخصـــص الكثير من وقتـه لقراءة الأدب العـالمي ، وقصـــص الرواد من أدبـاء العرب ، أعجب بالبدايات الأولى للقصـــة وغرق في بحار الطيب صـــالح ونجيب محفوظ ، كان يشعر أنه يهاجر كالطير في موسم الهجرة إلى الشمال ، وينسج شخصيات محفوظ في قريته حيث ولد سـليمان وسـعيد مهدي ، يشـعر أن هناك قرابة كبيرة بين سـعيد مهدي الذي يعرف كل تفاصـيله الحقيقية وسعيد مهران الذي يجسده محفوظ في قصصه.

في الشـــقة حيث التأم شـــمله مع بعض الزملاء فتحولت العلاقة إلى صـــداقة، عوضـــه ذلك عن صـــديق عمره حســـن وصـــديقه الذي يحبه من أعماقه ســـعد ، صحيح أنه يتذكر باستمرار وجه سعد الأسمر الذي يزهو بابتسامة سريالية وتفاصيل وجه حسن التي توحي بالكدح ، إلا أن جاسم ومهدي ورياض أصـبحوا قريبين إلى قلبه

، بدأوا يوزعون المهام على بعضـــهم ، رغم شـــعوره باختلاف توجهاتهم إلا أنه شعر بقرب منهم .

قرر أن يشتري سيارة مناسبة لتعينه على الوصول إلى حبيبته وقتما يشاء فاتفق مع زميله ياسر للتشارك في تلك السيارة ، شعر بالزهو وهو يركب تلك السيارة لأول مرة ، وكانت فرصـــة لاقتراب المجموعة من بعضـــها ، في نفس الوقت بدأ يتعرف على شـــباب من دول الخليج ، شـكل له ما يشـبه دائرة العلاقات الجيدة ، سـعود ومحمد من الكويت ، حبيب من السعودية ،،،

كانت المناقشات التي تدور بين مجموعة الشقة تفتح ذهنه أكثر على الحياة والأفكار ، وكانت ترشـــده كل صـــباح وهو ينتظر الوقت ما بين المحاضـــرات لاختيار كتاب جديد يقرأه ، ورغم أنه كان يحب الصمت ويشترك إلا ما ندر في المناقشـة التي تصـل لحد السـفسـطة إلا أنه كان حاضـــر الذهن يلتقط كل ما يقال وهو يقلب أحياناً بعض الورق أو كوب الشـــاي أو القهوة ، ازداد ولعه بالأدب والشـــعر والتـاريخ ، وتوجـه لقراءة تـاريخ بعض الشخصيات .
كان قد شـارك علي في مسـابقة للصـحف الحائطية ففاز بالمركز الأول وقد ابلغته الجامعة للتو أن جائزته عبارة

رحلة طلابية لجزيرة قريبة، كانت فرصـــة لينفتح على عالم جديد حيث شباب من مختلف البلدان الخليجية وحتى الأفريقية والأجنبية ، هناك تعرف على الشـاب التشـادي الأسمر " علي" فوجده غارق في السياسة وكاره لها في آن ، يتحدث عن الحرب في بلاده كمن يتحدث عن لعبة ، من يتأخر ومن يتقدم لا يهم ، الكل ســواء ما دام هناك طفل يقتل أو امرأة تجوع ، وقف معه على شـــاطئ تلك الجزيرة الناعسة :

- علي كيف تستطيع النوم وبلدك في حرب أهلية ؟

بلهجة عربية مكسـرة يجيب صـاحب السـحنة السـمراء والملامح الحازمة :

- يا صـــاحبي إنك تســتطيع أن تتعايش مع الأســود والنمور ، هذا هو الإنســـان ، كتب عليّ أن آتي هنا لأدرس فربما أستطيع أن أنتشل بلادي من الدمار ،،،

حدثني عن تشاد يا صديقي :

تبسم وكأن هدية هبطت عليه فجأة ،،، لم يصدق ذلك العرض ، تسلم أطراف الحديث :

- تشـاد ،،، بلدي الحبيبة ، سـأقول لك ،،، إذا أردت أن تتخيل الجنة فتعالى معي إلى تشاد !

تبسم علي لشدة المبالغة ،،،

- أشعر أنك لم تصدقني ،،، تظن أني أبالغ ، انا أعلم أن الكثير من الناس يظنون أننا في بلاد حارة ولا تطاق ،،، هذا غير صحيح ، يا صديقي بلادي هي بلاد كل شـــيء ، فيها ترى الصـــحراء والقوافل والتاريخ ، الناس ســـكنتها قبل ثمانية قرون قبل الميلاد ، تطل بشـــمســـها الحامية على بلدان كثر ، لكنها لا تعرف البحر ، ليس لها إلا بحيرة يتيمية ،،،

نملك حياة لا نهاية لها ، لكننا نصـــر على الموت في حرب لا طائلة منها ،،، هذا هو الإنسان عندما يعطى الحياة بكف يختار الموت بالكف الأخرى ،،،

يصمت صاحب الملامح الحازمة ويعض على شفتيه ،،، وكأنه يستحضر من ذاكرته المريرة شيئاً :

- أعلم يا صـاحبي إن نعمة الأمان لديكم غير مقدرة هنا ، غير مقدرة تماماً ، نحن نعرف كم هي ثمينة ، أنظر إلى هذا البحر ، يبدو هادئاً ودوداً لكن في أعماقه حرب ضـــروس لا يعرفها إلا من يركبون على تلك السفن البعيدة .
- من تؤيد ،،،، أقصد اي المعسكرين يشدك؟
- هذا سؤال يصـعب إجابته من هنا ، لا أحد يؤيد القتل والـدمـار لكن الكـل مضـــطر أن يكون جزءاً منـه ومشـــارك فيه ، عندما تدور آلة الحرب فعليك أن تشعل نارك وإلا طحنتك تلك الآلة المدمرة ، لكني هنا

ليس تحت ســطوة الحرب فأنا هنا أنبذ الفريقين وأود لو أمسك بهما من رقابهما .

- جميل ،،،، الحياد حقيقي ، يوجد شــيء اســمه الحياد حتى في الحرب ؟
- إذا أردت يا صاحبي فالحياد هو الإنسان قبل أن تلوثه نزعة الحيونة فيه ،،، بقدر ما نسـتطيع يمكن أن نبقى بشـراً أو أن نبتعد عن هذه الصـفة وخاصـة إذا دخلنا في الحرب .
- أراك فيلسوفاً ؟
- يا صـــاحبي ما هي لغة الحرب، حينما ترى القذيفة تسقط على بيت جارك المسالم فتدمر كل شـيء حتى الطفل الصــغير فإنك لا تملك ألا أن تكون فيلســوفاً ، بالتحديد ليس أنت ،،، الحدث يصـــنعك ، ما تراه هو الفلسفة إلا إذا لم يكن بداخلك شعور !

قال لصديقه الأسمر عن قصة أحد الزملاء الأفارقة حينما اســتشـــاط غضـــباً في احدى المحاضـــرات ورد على البرفســيور المصــري الذي أطلق على القارة الأفريقية مصطلح القارة السوداء أكثر من مرة في ذات المحاضرة ،،، نهض ذلك الشـاب الأفريقي النحيل وصـرخ بغضـب في الأستاذ :

- هل تعرف معنى القارة السوداء ،،، هل تظن أن ذلك يعني أن من عليها من البشر هم ذوي البشرة السوداء ،،، أنت جاهل يا دكتور ،،، قالها وهو يعض على شفاهه الغليظة ،،، أنت جاهل ،،، القارة السوداء تعني أنها أرض غنية بالذهب الأسود ،،، النفط يا دكتور !

قال عليٌّ لصاحبه التشادي :

- الغريب أن الأستاذ ترك الزميل يكمل وبكل هدوء رد عليه ،،، هل نسيت أنني أحد سكان القارة السوداء يا بني !

جلس الطالب خجلاً من نفسه ، لكنه كان شجاعاً صلباً ،،، وقد تحول ذلك المشهد إلى موقف لا ينسى !

بنفس تلك الرحلة للجزيرة المسترخية على مياه الخليج قابل عليٌّ الشاب القادم من عاصمة خليجية قريبة ، إنه حسام الشاب الوسيم الذي يستيقظ بحسب ما شاهده في الرحلة صباحاً ليقضي ساعة في تجميل شعره والتأكد من كل شيء في جسده ، وجد عليٌّ فرصة لمحاورة حسام المستهتر بكل شيء :

- اراك تهتم كثيراً بنفسك ؟
- وهل ترى في ذلك عيباً ؟

- لا ،،، أبداً !
- طيب ،،، لما تسأل ؟
- فقط أردت أن أعرفك أكثر !
- بالمناسبة أنا أراك مهملاً لنفسك ؟
- كيف ؟
- هل تريد أن أكون صريحاً معك أ تريد أن أجاملك ؟
- كن صريحاً .
- يا عزيزي أنا أراك لأول مرة ولم تتح لي فرصة التعرف عليك سابقاً ، لكن أنا بطبيعتي صريح جداً ، أنت شاب ومستوى اهتمامك بمظهرك غير كاف ، ألا تريد أن تجذب الفتيات لك ؟
- تكفيني فتاة واحدة !
- لكن فتاة واحدة لا تكفي يا صديقي !
- هذه فلسفة جديدة .
- نحن الشباب اليوم علينا أن نستغل شبابنا في الاستمتاع بقدر ما نستطيع ، غداً سيذهب شبابك وستندم أنك لم تستمع بكل لحظة من حياتك ؟
- أتفق معك لكن كيف تستمتع هل بالتعرف على فتاة كل يوم، هذا لا يتناسب مع كونك شاب متحضر
- ومن يقول ذلك، هذه هي المدنية، الناس في الغرب الآن وصلوا للقمر وقد غيروا كل هذه القواعد، وعليك أن تفتح ذهنك، أتريدني أن أقتنع أنك لا تشتهي

تلـك الفتيـات الجميلات اللاتي يســبحن على ذلـك الســاحل الجميل، من خلق هذا الجمال، أليس هو الله، فلماذا لا نستمتع به؟

- هناك قواعد للحياة، الدنيا لا تؤخذ بالفوضى، ما تقوله من مبادئ ليس خاطئاً لكن ذلك لا يعني أن نكون في إطار الفوضــى، نفعل ما نشــاء، إن أردت أن تستمتع فعليك بالزواج؟
- الزواج سيأتي في الوقت المناسب وعندها سأكون قد استمتعت.
- ربما عليك أن تراجع بعض القيم التي تعتنقها فالمسألة مرتبطة بالقيم الإنســـانية والفكر والمبادئ ، أنت في إطار عائلتك ومجتمعك تحتاج لهذه القيم ؟
- صــدقني لا أفهم هذا الكلام ، أنا أفهم أن علي أستتنتع بحياتي .
- وليكن استمتع بها .
- نحن متفقين على كل حال !

ليست تلك الشخصيتين فقط هما من قابلهما عليٌ في تلك الرحلة ، كانت ثرية بنماذج كثيرة فتحت عينيه للكثير من الفهم ، وعلى كل حال فقد كانت فرصــة للتأمل في الكثير من الأفكار ، ومراجعته للكثير من القناعات .

هو يدرك أنه ليس كفيصل الشاب الوسيم الذي يستحضر ابتسامته بعسر ويقول :

- ولـدت وفي فمي ملعقـة من ذهـب ، لكن بودي أن أعرف كيف يعيش الآخرون ، أسـمع كثيراً عن حياة الفقراء لكني لا أستطيع أن أتخيلها ؟

هذا ما سمعه منه في ليلة اجتمع وفد الرحلة على الساحل وجعل المشـرف على الرحلة كل شـاب يتحدث عن نفسـه وعن بلده، تحدث التشـادي الأسـمر عن الحرب بطبيعة الحال، وتحدث حسام عن الشباب وفرص الحياة، وتحدث فيصل عن الفقر والغنى وعندما أشـار له المشـرف ليقول شيئاً أجاب:

- أنا قادم من بلد قريب في الجغرافيا، بعيد من حيث المجتمع، ربما تسـتغربون لكن صـدمتي كانت كبيرة في وجود الفارق الشاسع بين ما أعيشه هنا وربما ما يعيشـه الآخرون في بلدي وبين ما يعيشـه أهلي وأهل قريتي،،، سـأحثكم عن فرق المسـافات بين القرية والمدينة، بين أن تكون في الظل حيث لا تطلع شـمس هناك، قد تعجبون إذا قلت لكم أن البحر يبتلع قريتي ويلفظها ندية في برد الشـتاء، الظل يقطعها كما يقتطع السـيف رقاب الأعداء، هناك الكثير من الصـمت والكثير من الرماد .

أعجب كثيرون بما قال وقد حمل كثير منهم على سؤاله عن التفاصيل فوجد فرصة ليتحدث عن قريته دون أن يبوح بكل شيء، كان يقول لنفسه أنه لا يزال يشعر بالخجل من كثير من تفاصيل الأشياء، لكنه برع في تصوير قريته النائمة بجانب البحر، الجميلة بثوب مرقعة.

الفصل السادس

أمواج التيارات

ومرت الأيام وقد شـــعر عليٌ أنه اســـتقر به الحال في قناعاته، لم يعد خياره يضـــغط عليه كثيراً بقدر ما كان الحـاح البعض ممن لا يفهم الأمور بـأن يطلـب منـه أن يحضـــر تلك الندوة أو هذه الحفلة، أما هو فقد اطمأن واستقر فكره.

في الشـهر الثالث وصـلت إليه رسـالة من صـديقه حســـن من مدينة خليجية أخرى وبها رقم هاتف المبنى الذي يسـكن فيه مع رفاقه وقد سـجل له شـريط كاسـيت يعبر عن افتقـاده لـه، شـــعر بكثير من الـدفـء ثم خرج منسـلاً إلى الطريق حيث مركز الاتصـالات وأدار الرقم ليسمع صوت صديق عمره حسن.

علي بصوت متقطع: أقدر أكلم حسن من البحرين.
صـوت المشـرف على البناية بلهجة مصـرية: آه ... أي حسن فيهم ده هنا فيه أربعة حسن من البحرين.
علي: أيوه عايز حسن الكوفي

المشرف لحظة : وحاناديه ...
علي يترقب ... ألو,,,,,,,,,,,,,,
ألو,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,,

- أبو علي شخبارك؟
- والله تمام، حلوة منك أبو علي، لأني ما أتذكر سمعتها منك من قبل!
- بعد أنت صرت رجال فلازم أسميك أبو علي.
- يعني أنا توي صرت رجال يا بو حسن.
- والله عجيبة منك أبو حسن، شعرت أني شيبة.
- أقول أنت بتجاوز العشرين يعني صرت كبير.
- العمر يمشي يا بو علي.
- بس المهم أن العمر يمشـــي واحنـا نحقق أهـدافنـا ومستقبلنا.
- الحمد لله كل شيء مثل ما رسمناه، تعبنا ما راح هدر.
- الحمد لله.
- تدري يا صـــديقي، أنا معزم أقوم بزيارة إليك أو أنت تزورني، يعني لازم نلتقي، خلنا نطلع ونشوف الدنيا.
- ممتاز خوش فكرة خلنا نرتبها بشكل سريع.
- نهاية هذا الفصل.
- ممتاز، اتفقنا.
- مع السلامة.
- في حفظ الله.

الكثير من الأمور تتغير، سـعد قضـى زمناً في أمريكا وهناك رأى حياة أخرى، رأى ما هو ابعد من الساحل الذي كان يسامره ليالي طوال، وحتى دراسته زرعت فيه الكثير من جوانب التغيير.

يبدو أن الحياة تأخذ سـعد إلى مفترق طريق، يتصل بأهله بين فترة وأخرى، أبوه تعب كثيراً واشتد مرضه وأمه توصيه كثيراً بأن يهتم بالاتصال بأخته نورة، هي كثيرة السؤال عن عليّ لكنها دوماً تنبه سعد إلى توعيتها بالفارق بينها و بينه ،،،

- شوف يا سعد أنا أعرف أن أختك متعلقة بعليّ لكن القلب شيء والدنيا شيء ثاني، أختك الحين ما تدري، لكن يا بوك هذي الدنيا،،، يعني العنزة مهما ارتفعت ما تطير!
- المشكلة يمه أن نورة متعلقة فيه واجد،،، وهو بصراحة إنسان مميز ويستاهل بس شنسوي في الظروف!
- يا ولدي خذ بخاطرها شوي شوي ومردها بتفهم الدنيا وبتركه ،،، أهو صدق آدمي بس اهو من ثوبنا يا يمه .

وبينما كانت الأم تبث ثقافتها لسعد كانت علاقة نورة بعلي قد توثقت.

بنهاية العام كان عليه أن يعود بعد أن يلتقي مع صـــديقه حســـن في عاصـــمة خليجية قريبة، كانت ثاني أســـفاره بعد ســـفره مع طلبة الجامعة إلى تلك الجزيرة الجميلة، أتاح له ذلك السفر أن يعرف أن صديقه حسن قد تغير كثيراً، لم يعد ذلك الشـــاب البســـيط، يبدو أن أجواء العاصمة العربية بأضوائها قد أبهرته فانجرف بعيداً.

لأول وهلة حينما تعانقا بعد الفراق الطويل، تأمله فوجده كمن يمتطي حصـــاناً في غابات الولايات المتحدة الأمريكية وصحاريها:

- كأنك فارس من فرسان الكاوباي؟
- هذه هي الموضة الآن يا صديقي!
- عندما افترقنا كنت بحال مختلف، أنا متفاجئ لأنني غادرت قبلك ولم يتســـنى لي أن أراك تردي البنطال والقميص.
- لا مشكلة، الشكل ليس هو المهم، الجوهر هو الأهم.
- صدقت يا صديقي.

خلال ذلك الأســـبوع لاحظ علي الكثير من التغيرات قد بدت على صـــديقه حســـن، لم يتوقف في مناقشـــة الكثير منها، أصـبح حسـن من هواة التدخين وهو الذي لم يحمل سيجارة قط ، كان يشعل السيجارة بأخرى ، وعليٌ يتأمل

ذلك الشـره في فم صـديقه دون أن يتحدث ، لمح علي في خطابه الكثير من التحول ، لكم أكثر ما أدهشـــه حديثة المستمر عن حبيبته التي تعرف عليها هناك:

- وين يا علي ،،، فرق شـاسـع بين الي عندنا في القرية والمرأة هناك ،،، شيء يرد الروح !
- بس يا حسن المرأة هي المرأة في كل بقاع الأرض.
- هـذا كلام قـديم، المرأة عنـدنـا غـارقـة في الجهـل والتخلف، وهنـاك المرأة مســتنيرة متفتحـة، مـا في مقارنة.
- اتفق معك في الفارق، لكنه لا يعني المرأة فقط، حتى الرجـال لـدينـا غـارقون في الجهـل أنـا وانـت وقبلنـا وبعدنا ســنشــكل طلائع الوعي والتغيير لقريتنا، كما هو الحـال بـالنســبـة للمرأة ،،، عزيزي نحن جميعاً علينــا أن نخط طريق التغيير في قريتنــا المنكوبــة المثقلة بالهموم ، ما تفعله ليس إلا حالة من الهروب للأمام لكنها قد تكون قفزة في الهواء .
- يـا أخي ليش أنـت تتعمـد تحبطني مو أنـا أول واحـد يحـب فتـاة عربيـة، أنظر ،،، أنظر ،،،، أنظر ،،، منصـــور جارنا تزوج ســورية ،،، وولد أحمد بن ســلمان تزوج إيرانية ،،، يعني أنا الي بتكون عندي المشكلة ؟

- أنـا لا أتحدث عن حبك أو زواجك، الحب والزواج حالة شـخصـية، كل شـخص ممكن يتزوج من يحب من اي بقعة من الأرض، لكن حديثي عن انتشـــال قريتنـا ن الوضـــع التي هي فيـه، وخطـابـك يوحي بالتخلي عن هذا الدور بهذا الزواج.
- على العموم حدثني عن نورة؟
- القصة طويلة ،،، لكنني لا أخفيك أنني محتار !
- وهل تلتقون لقاء العشاق كما ألتقي أنا بحبيبتي؟

رمقه بنظرة استغراب ،،،

- نلتقي، لكن لا أدري ما تقصـد بلقاء العشـاق، نعم هو لقاء عشاق لك أن تقول إنه عذري أو طاهر!
- يبدو أنك لن تتغير أبداً، ســتظل ذلك الطفل الذي يلاحق القمر ؟
- نعم ،،، قلبي الذي ينبض بصدري لا يتغير ،،، أغاني الفجر في مخيلتي ،،، وصوت أشجار اللوز في ساقية المزرعة القريبة ترن في آذاني ، أنا متماســك بحيث لم تتمكن التحولات من جرفي ،،، عزيزي بوعلي : القـائـد من يســتطيع أن يخرج بمركبـه من وســط العاصفة ، ليس القائد من تأخذه الريح حيث تشاء .

لم يكن مرتاحاً من نبرة حســـن وهو يحط من قدر المرأة في قريته، في تقديرا أنها ضـحية كما هو وحسـن وشـباب آخرين وكبـار تراهم الآن يجلســـون في الظـل وكـأنهم ينتظرون قافلة أمل لا تأتي أبداً ،،،

غادرا تلك العاصمة بعد أسبوع حافل بالمناقشات، لكن ما جرى عندما عادا للقرية أكبر ،،،

وجدا القرية نائمة وكأن شيئاً لم يتغير، السماء هي السماء والظل هو الظل ،،، منزل معلم القرآن والسوق القديم ،،، نظرات الجـالســـين في الظـل ، وبعض المـاعز تجوب الأزقة ،،، تســـاءل حســـن إن كان الماعز الذي يجوب القرية هو نفســـه قبل عام أم أنها ذبحت وهذه أخرى، لا يعرف لماذا ســأل نفســه ذلك الســؤال فلم يعتني لإجابة! الماء الآســـن في كل ناحية، والمنازل القديمة المبنية من الطين وكـأنهمـا فـارقـاهـا بـالأمس، تـألم وهو يرى قريتـه تكتسـي الكآبة والحزن، كان يراها بعينين مختلفتين، ربما كما يراها الأطفال الذين يتراكضون في ذلك الزقاق.
لم تتح له فرصـــة كبيرة للبقاء في قريته، ربما كان ذلك بداية الهروب من تلك القرية، يحاول أن يســـتعيد ذلك الشعور بالندى وبلطافة الفجر لكن دون جدوى، كل شيء يجعله أكثر كآبة وحزناً، حتى أنه لم يتذكر أن يعود لجدار

الملح العتيق في غرفته وإخوته، يدعي الابتسامة لكنها ابتسامة زائفة ،،،، حتى عندما ذهب لذلك الشق الذي تنسل من خلفه زينب فوجده باهتاً مكفهراً، شعر بأنه حزين فلم يستطع الجلوس طويلاً.

بعد أيام دعاه صديقه حسن للخروج في أمسية ،،، قال له وهو يحفزه على القبول:

- يعقوب ،،، أنت تعرفه ، دعانا لأمسية ، طلعة شباب في البر، خلنا نروح نسلي نفسنا شوي، في الوقع أنت من يحتاج للتسلية؟
- طيب نروح يا صديقي!

لم يمانع كثيراً رغم شكوكه بألا تكون الأمسية أمسية عادية فهو يعرف يعقوب ويعرف أنه صاحب شطحات ونطحات كما يقول عمه، هو أحد ابناء الجيران لكنه مختلف تماماً، لذلك كان هو الوحيد من بين أقرانهم من زار مركز الشرطة في أكثر من مرة بسبب شكاوى سرقة وتعدي على آخرين ،،،

في المساء اتجها سوياً إلى بر الصخير حيث فضاء المسافات هناك يجعلك تشعر بحرية لا متناهية، قال

لصـــديقه حســـن الذي كان يقود الســـيارة وهو يمســـك بسيجارة تلو أخرى:

- أتعرف بما أشعر عندما أرى هذا البر المتناثر؟
- بماذا؟
- أشـعر بأنني أشـق حدود الظلام، خاصـة عندما أكون في السـيارة، أعشـق أن أقودها بسـرعة كبيرة، ذلك يجعلني أحلق في عالم الوهم اللامتناهي!
- الوهم اللامتناهي؟
- نعم، الحقيقة ليسـت كما تبدو لذلك الحلم أحياناً يقربك من الحقائق.

في منطقة ليسـت ببعيدة من تلك الأرض المنبسـطة التقى عليٌّ وحســن بجمع من الشــباب، كانوا قد أشــعلوا ناراً وبدأوا بتحمية بعض الطبول، لم يرتح عليّ للوضـــع فقد شـــم رائحـة شـــيء غير مألوف حينهـا، همس في أذن صديقه:

- الوضع غير مريح!
- لماذا ،،، هل بسبب الطبول؟
- لا لكنني أشـــعر أن المجموعة التي أراها لأول مرة غير مريحة بالنسـبة لي ،،، أما الطبول فكل وشـأنه، صحيح أنا أحب جو الهدوء لكن ليس ذلك هو السبب.

اســـتمر بهم الجلوس طويلاً حيث كـان البعض يمـارس هوايـة الشـــواء في الهواء الطلق، بعدهـا ألح عليٌّ على حسن بالمضي وأمام اصراره استجاب، في طريق العودة لا يعرف علي لماذا طلب من حســن أن يعودا للمكان في وقت آخر لكن حســـن رفض بعناد وقال له أنه متعب ويريد أن يرتاح وهو لا يفهم لماذا يطلب العودة ثم يطلب أن يعود للمكان مرة أخرى ،،،

لم يوضـــح عليّ لحســـن ما كان يدور في خلده لكنه كان يريد أن يعرف شـــيئاً ما، لذلك وعند الفجر أخذ ســـيارته وعاد إلى حيث المكان الذي ســـهرا فيه، صـــدق حدســـه بوجود أشياء غريبة ،،،

لحظات الفجر الأولى في برّ الصـخير حيث يذوب الفجر كالندى الطري على تلك الصـخرات المتناثرة، الصـمت يلف الرمال، كم كان الصـمت جميلاً، وكم كان جميلاً أن يفتح نافذة سـيارته ليترك نسـائم الفجر تعبر بجرأة نحوه، هواء دفيء يلفح وجهه الساكن سكون الفجر.

ينسل بسـيارته كالفارس الممتشـق صـهوة جواده في ذلك الفضـــاء المترامي، يبحث عن المكان الذي لفه الظلام البـارحـة، الصـــحراء بطعم الفجر تختلف عنهـا بطعم الظلام، كأنها شـــيء آخر، يحاول أن يقارب بين المكانين ليجده مع عسـعسـة الضـوء الأول للفجر كالمرأة العارية، يثير كل أحاسيس الرجولة فيه، الشمس تستعد لتطل على

ذلك الفضاء، كأنها ترسل حمرتها رسولاً لتلك الصخور والأحجار وأكوام الرمال، كأن الحمرة تؤذن بكل شـــيء ليستعد لقدوم الشمس، إنها آتية لتغير كلّ شيء ،،،
يتوقف عند دائرة الرماد الخافت، الرماد يلتحم بالأرض، يتبدد فيها، يطل من النافذة أولاً ،،، أكوام من فوضـــى تركتها الأيادي التي كانت هنا، ينزل من ســـيارته لينظر تلك الأكوام ،،،،
يصعق مما يرى !
ما يراه ينطق بكل هواجســـه ،،، أصـــدقاء يعقوب شـــلة مخدرات، بقايا أدوات التعاطي هنا، يبدو أن الجزء الثاني من السهرة كان مخصص لذلك، حسناً فعلنا حينما غادرنا المكان قبل بدء ذلك الجزء من الســهرة الحمراء، لم يطل البقاء إلا بما يكفي ليتأكد من هواجسه ،،،

رحل وهو بين الحنق والرضـــا من صـــديقه حســـن الذي جاء به لهذه الســهرة، فكان أول خطواته أن يبلغ صـــديقه بالحقيقة، ولكن الصـــدمة كانت عندما قابل حســـن تلك الحقيقة بفتور كبير:

- إذن أنت على علم بأن هذه شلة تتعاطى المخدرات
- لكنني لا أكترث بما يفعلون!
- دعني أحذرك أن الانزلاق يبدأ بهذه الطريقة، لذلك علي وانا صديقك أن أنبهك بأن هذا الطريق وعر ،،،

وعورة حقيقية ،،، يا صـــديقي لا تهرب من واقعك المؤلم لواقع اكثر ألماً!

- أؤكد لك أنني لا أتعاطى، أنا أدخن سيجارة عادية.
- أنا كلي ثقة بك لكن عليك أن تتوخى الحذر.

علي وقد شـدد على نفســه اللوم لأنه أهمل صـديقه حتى يكاد يراه وهو يضيع دون أن يتمكن من فعل شيء، حسن ذلك الفتى الهزيل الضعيف الشخصية يقترب من متعاطي المخدرات، ماذا بعد تلك السـيجارة اللعينة، عليه أن يعيد الثقة الضـامرة بينه وبين صـديقه أن يقترب منه قبل أن يضيع، سيكون عليه أن يبقى فترة طويلة بعد هذه الإجازة في الجامعة وهناك ســيبقى بعيداً عن تأثير علي عليه، مؤكد أن هناك من الأشياء ما جعلته يتجه لهذه الأجواء.

تمكن دون يقين حقيقي من الإمســاك بيد صـــديقه قبل الغرق لكنه لا يعلم إلى اي مدى سيكون في ممسكاً بتلك اليد، المهم أنه شعر بما يلوح في ليل تلك القرية الساحلية، غبـار التمدن يعبر أفنيتهـا المفتوحـة، لا أحد يعرف أن هناك مثل يعقوب يحمل في عبابه أكياس ملوثة ينثر ها في سـماء القرية المسـكينة، من منْ أولئك الجالسـين في الظل يعلم بما يحاك ، لا أحد ، إنهم محسـودون على تلك الراحة النفسية التي يملكونها، بات عليّ يحسد الجالسين في الظل لأنهم ببســاطة ينهضـــون حينما ينادى بميت

بينهم، يسارعون لدفنه دون أن يخطر ببالهم أن هناك من الأسباب ما يقلق قلوبهم، إنهم بسطاء لدرجة أنهم ألفوا الظل وصاروا جزءاً منه.
تذكر حديثه القديم مع أبيه حول جلساء الظل، سأل والده عن سبب الندوب الواضحة في وجه بعضهم فأجاب:

- هؤلاء مصابون بالجدري، إنه مرض فتاك ومعدي، مات الكثيرون من قدماء هذه القرية بسببه، ومن كان صاحب حظ فقد أصيب بالعمى وكتبت له حياة جديدة.

الأمراض تفتك بهم وحالات الهوس بالمخدرات تمر بالقرية وهم نيام، لا أحد يعرف عن يعقوب إلا أنه فتى متمرد لكن سيكون من الصعب أن يعرف أهلها أن مدمن مخدرات وما خفي أعظم .
تبادل كل هذه الأفكار مع صديقه حسن، لم يصلا لشيء سوى أن ينتبها لنفسيهما، القضية أكبر منهما كما قال واتفقا.
ارتاح علي أنه مد يده لحسن وأن حسن تقبل منه لك ،،،

بين الكتاب والمكتبة وشيء من المرح مضت أيام الجامعة الرائعة وعلي لا يزال يتمسك بطريقه الذي يشع من أعماقه جراحاً وقد أضفت علاقته بنورة طعماً جديداً فقد تحولت إلى ما يشبه الشق إلى عالم جديد لم يعرفه من قبل وكانت الأمور تسير بشكل رتيب ما خلا حين يطل

وجـه زينـب الملائكي الـذي لا يزال يراوده بين الفينـة والأخرى بصورة غير واضحة الملامح.

نضـــج على الكثير من البهجة بحب نورة وتذكر زينب، ورســـائل أخيه ناصـــر الذي تعود منه الكثير من عدم الاكتراث، لا يبالي أن يخاطبه بنوع من الجد الذي يصـل لما يشبه الكي، مرة أرسل له خطاباً قال فيه:

- عزيزي علي لن احتاج لمقدمات، أنت شـــاب راشـــد وناضـــج، الكثير مما يؤلم بحصـــل في الحياة وذلك الكثير مما يفرح، أفضـل أن أخبرك بما يحصـل قبل أن يخبرك أحد غيري فيصـيبك شـعور بالإحباط، أود ان أقول لك أني أشـــعر بالكآبة والحزن، أبي يكدح لكنه لا يستطيع أن يغطي مصـروف العائلة ، أخوتك وأخواتـك ينتظرون مني الكثير لكنني أشـــعر بثقل المسئولية، راتبي يذهب كله هباء ، لا أستطيع أن أبدأ حياتي ، يبدو أنني كتب علي أن أعيش رهن العائلة .

في المقابل كتب له صـديقه حسـن خطاباً وقد وضـع فيه صورته وهو يرتدي بدلة ملونة زاهية وكتب له:

صـديقي العزيز علي، مر وقت دون أراك، أشـعر بأنني أفتقدك، ســأحدثك عن التطورات لأنني لا أجد أحداً هنا لأبوح له بما في صـدري، أصـابني التردد في حبي لبنت خـالتي كمـا أبلغتـك، في آخر مرة عـدت للوطن تـأملتهـا أكثر، لقد أصــبحت ناضــجة، أشــعر من نظراتها أنها تحبني، خجلها يمنعها أن تكلمني، لكنني متأكد من حبها لي، بالنسـبة لي أشـعر بالتردد، الفارق التعليمي يحملني على ذلك، أحياناً أقول إنها صـغيرة وأمامها طريق طويل لتتكمـل تعليمهـا لكنني أقـارن بينهـا وبين البنـات هنـا، لا أقول أنهن أجمل لكنني أشــعر أنهن أقرب إلى قلبي، انا محتار وأريدك أن ترشــدني ، دائماً انت يا علي أكثر نضجاً من عمرك.

رد علىٌ بخطاب قال فيه:

ربما ليس لدي من الكلام ما يشــفي غليلك، لكني أعرف أنك تمر بحالة التردد التي يمر بها كل شــاب خرج من قوقعة القرية إلى فضـاء المدينة، أعلم أنك منبهر ولكن قد يكون انبهارك مجرد صـدمة، كمن ينبهر بلؤلؤ صـناعي وبين يديـه لؤلؤة نـادرة، إذا كـان هنـاك من كلام فحدث قلبك، انصـرف عن أي شـيء وتحدث مع الشـخص الذي بداخلك، الجواب هناك في أعماقك ليس لدى أي أحد آخر

مهما كان مرشـداً، ربما يسـتطيع أن يشـير إليك لكن من الصـعب أن يسـلمك الجواب ، انظر لوضـع صـديقك يا حسن ، قلبه موزع بين اثنتين، يشـعر مع الأولى بالبراءة والصـدق ويشـعر مع الأخرى باللذة، كلما فتشـت وجدت نفسـي تائهاً، لقد قررت السير على الطريق وذهبت بعيداً لكن إذا سألتني فإنني حتماً سأقول لك إنني لا أدري! ربما من الصـــعب أن نقرأ أعماقنا لأنها تكتب بلغة لا نتقنها، لكن الحل موجود فيها كاللغز، علينا أن نفك الحروف لنصل للحل.

وهو يشارف على السنة الرابعة بدأ يستقر أكثر ويستعيد توازنه ويتذكر الكثير، قرر أن يدون بعض ذكرياته:

تحت عنوان " ولد سـليمان " كتب: لن أنسـى قصـة ولد سـليمان، ذلك الرجل الذي يشـبه مارد الفانوس، لا أدري لماذا أشـعر أنه يخرج من وسـط عتمة داكنة، في نظراته الكثير من الشـــرر، يركب حماره ويذهب للبحر، ليس بعيداً عن القرية ينزلق، لا أحد يقترب منـه، الفحش في كلامه يجعل الجميع ينفرون منه، ولقســـاوته كان أهل القرية ينسـجون الكثير من القصـص حوله، تحول لبطل أســطوري في قريتي، ليس بغريـب أن تســمع بعض

الأهازيج باسـمه وقد تحولت لما يشـبه الأهـــــــــازيج التاريخية:

قدامك ولد سليمان
مشيته مثل الطوفان

اتباعد عنه بعيد
ترى الندامة ما تفيد

دائماً أفكر لماذا تحول ولد ســـليمان إلى أســـطورة أهل القرية يمتزج فيها الخير والشـــر، لم اســـمعه يتكلم يوماً سوى بعض جمل وهمهمات بصـوت أشـبه بالرعد، ربما تحول من خلال صـــورته المؤثرة وجثته الضـــخمة إلى ذلك المتخيل لكنه غير ذلك حقيقة.
لم أره يوماً يبيع الســـمك رغم أني غالباً ما أراه يخوض مياه البحر، كنت أشعر أنه ملك ذلك البحر لا يخـــــــشاه أبداً.
كثير من الأســـاطير بشـــأن محاربته لغزاة يأتون للقرية كانت تتردد على لســـان النســـاء بالذات لكن أي هذه الأساطير صحيح، لا أعلم؟

في السـنة الرابعة شـعر بتغيير في علاقته مع سـعد ففي السـنوات الأخيرة لم يلتقيا إلا بضـع لقاءات إذ تباينت إجازة الصديقين وقل اتصال سعد بصديقه وتنقل الأخير في أمريكـا من ولايـة لأخرى دون أن يرسـل عنوانـه لصديقه الذي كان يشعر إنه جزء منه.

سـؤاله لنورة المسـتمر أشـعره بشـيء ما لكنها كانت فيما يبدو تأبى أن تفصـح له عما يجري وكان علي لا يلح في السؤال.

يعود علي بعد تخرجـه دون أن يلتقي بنورة التي كـانـت منشـغلة بامتحاناتها النهائية ويكتفي بمكالمة هاتفية يجدها فيهـا تجهش بـالبكـاء دون أن يعلم أن هنـاك مـا ينتظره عندما يعود.

الفصل السابع

ما بعد التخرج

فرحة التخرج أنسته الكثير من الجراح لكنه لم ينسى أن يطل على جدار الملح الذي كتب فيه ذكرياته رغم انه قد أصبح له غرفته الصغيرة فقد بناها من المال الذي يتسلمه

من الجامعة وبمساعدة أبيه كان يسرق بعض الوقت ليقرأ في سجل ذكريات أيامه التي خلت حيث كان يناجي القمر وقطة تموء في الجوار، حضـن أمه الدافئ أنسـاه ما كان يشعر به تجاه الفقر الذي تعيشه قريته برمتها.

أسـرع ليتقدم لأكثر من وظيفة والأمل يحدوه بأن يبدأ في بناء مسـتقبله وخدمة وطنه لكن بمرور الأيام والشـهور بدأت نفسه تشعر بخيبة الأمل، كان يطل من نافذة غرفته الجديدة بالطابق الأول من المنزل القديم ليرى الطلاب وهم يتوجهون للمدرسـة والعمال وهم يسـيرون لمواقع عملهم بينما هو حبيس تلك الغرفة فيصـاب بيأس قاتل سـرعان ما يخففه باتصـال بطيف نورة التي توظفت في إحدى الوزارات المرموقة ...

يخاطبها بقلبه النابض: كل يوم يمر يأخذني إلى حيث البعيد، حيث لا أعلم ما إذا كنت أستطيع أن أملك نفسي، اشـعر بأنني كبحار يتجه إلى غياهب محيط هائج، قاربي يوشـك على التحطم، أنا الآن أتكأ على بقايا ذكرياتي معك، تلك الأيام حيث كانت أنفاسـك تصـل إلى أذني، لكنني أشعر أنني أذهب بعيداً حيث الموج المتلاطم يصم أذني ويغطي عيني، أتمنى ألا يتأخر الوقت فما بيني وبين ذلك المحيط سوى بضع محطات.

كان دفء كلامها والأمل الذي تبث بقلبه دافع له للصبر، وفي تلك الفترة كانت اتصالاته بسعد قد أصبحت شبه منقطعة لكنه عرف من نورة أنه تخرج وتعين ضابطاً وأنه تغير كثيراً كما تقول بسبب زهو المنصب حتى أنها رفضت اقتراح على بأن يتصل ليبارك له ونصحته بألا يفعل ذلك.

لم يعتني بنصيحة نورة فقرر الاتصال، قال في نفسه لا يمكن أن ينتقل صديق عمري هذه النقلة فلا أتصل به، تذكر جلوسه وسعد على ساحل البحر ووعدهما لبعضهما بألا ينسى أحدهما الآخر، تذكر كلام سعد له، إذا أحسست بأنك بعيد عني فتعالي إلى ساحل قريتي لأنك عندها ستحن إلى صديقك!

أدار الرقم وهو متحير، انتظر طويلاً ليرد في الطرف الآخر، بالفعل نبرة صوته تغيرت، شعر بشيء مختلف، أقرب للاتصال الرسمي، احتاج أن يعرف نفسه:

- أنا صديقك علي! اتصلت لكي أهنئك بالتعيين، أنت تستحق كل خير.
- والله فيك الخير يا علي، مشكور على الاتصال، وأنت هل توظفت؟
- لا حتى الآن أنا أبحث عن العمل المناسب.

- أنت أيضـــاً تســـتحق وقد تعبت وتخرجت وأكيد ستتوظف.
- على العموم حبيت أهنئك وأتمنى لك التوفيق.

لم يشـعر عليُ بدفـء العلاقة السـابق، ارتاح ضـميره أنه أدى الواجب لكنه شـعر بأن الأمور بدأت تتغير، شـعوره لم يتغير تجاه ســعد الذي أحبه كأخ لم تلده أمه لكنه يحس بـأن الزمن كفيـل بتغيير الكثير من الأمور، حتى نورة التي شعر بأنها تحولت لجزء منه صارت المسافة بينهما مختلفة.
فيما هو منشغل الفكر، استدار لصديقه حسن وقال:

- كيف تنظر للصداقة؟

نظر له باستغراب وأجاب:

- هي الحياة يا عليٌ ،،،
- هناك شيء يحيرني يا صديقي، هل الصداقة الحقيقية يمكن أن تنتهي، أقصـــد هل يمكن أن يكون هنـاك صديقان ويتبادلان مشاعر حقيقية ثم يفترقان ببساطة؟
- تقصد صداقتنا أنا وأنت؟
- لا يا حسن! أنا اتحدث عن صداقتي مع سعد ،،، يبدو أن هناك الكثير من الأشـياء التي تتغير، اتصـلت به فوجدته فاتراً في حديثه معي، هل ذلك طبيعي، ربما

طبيعة عمله كضـــابط تجعله كذلك؟ حتى نورة التي أحبها وتحبني بدأت أشعر بأن هناك تحول في كلامنا، في طبيعة حديثنا، اشعر أنها تخفي عني الكثير، كنت قد قلت لها يوماً أن حياتنا ومستقبلنا مختلف فقالت لي أنا يمكن أن أسكن معك في كوخ بالي.

- يا عزيزي الكلام شـــيء والحياة أمر آخر، لا تأخذ كلامها على محمل الجد، ربما ينبض قلبك، لكن ليس بالضرورة يكون نبضه حقيقي.
- هل تقصد أنها لم تحبني يوماً؟
- لا أقصد ذلك، لكن أقصد أنه آن الأوان لتفكر جيداً في الفـارق بينـك وبينهـا، الواقع يفرض الكثير ممـا لا نشـــتهي يا عزيزي، ســـفينتك لا ترســـو دائماً على الساحل الذي أنت تختاره.
- هل هكذا الحياة صعبة.
- ربما.

في اليوم التالي كان لديهما حافز قوي لحضـــور ندوة في نادي القرية حول فرص العمل، امتلأت القاعة بأعداد كبيرة من الشـــباب وتحول الحشـــد إلى الغضـــب بعد مداخلات متعددة، تذكر كيف كان هذا النـادي يضـــم اجتماعات بين طرف من الســـلطة ورجل دين في القرية للحديث عن الوضـــع البيئي، كانت القرية قبل ســـنوات قد

واجهت مشكلة كبيرة بإنشاء منطقة صناعية إلى جانبها، وتراكض أصحاب المال والنفوذ لإنشاء مصانع للرمال حيث الطفرة العمرانية قد بدأت للتو في الخليج، ليس هناك من يفكر إن بالقرب من هذه المصـــانع من يتنفس، هذا هو حديث رجل الدين خلال دفن طفلة من القرية توفيت دون أن يعرف أحد السبب ، لكن رجل الدين الذي يتحدث لغات عدة قال وهو يقف على قبرها : ندفن طفلة وغداً ندفن شـــخصـــاً آخر ، لا أحد يفكر أن هناك بشـــر تموت بسبب هذه المصانع ،،، كانت الوجوه مسمَرة وهي تســتمع دون حراك لحديث ذلك الرجل الذي غادر القرية منذ زمن دون أن يعرف أهلها أين رحل؟

النادي الذي عرف بأنه مقر للشباب يعود ليطرق مشكلة جديدة تدق ناقوس خطر جديد على القرية، صـــحيح أن مشكلة المصانع لا زالت قائمة والكثير الكثير مما ترزح تحته هذه القرية الفقيرة لم يتغير، إلا أنه يشـــعر اليوم أن النادي أصبح كالقلب النابض للقرية، نبس في أذن صديقه حسن:

- تعرف، انا اليوم مرتاح كثيراً بأن النادي بالقرية أصبح في قلب الحدث.

- لكن هو منذ زمن في قلب الحدث، من أيام لمصـــانع والمســـتنقعات وغزو العمالة الأجنبية للقرية، كلها قضايا كان النادي في قلب الحدث.
- لكن طرح قضـــية العمل مختلف، إذا حلت قضـــايا الشـباب في العمل فبشـكل طبيعي سـتحل المشـاكل الأخرى.

أحدهم على منصـــة الخطابة يرتفع صـــوته ويتحول إلى الصراخ:

- أيهـا الحضـــور من هـذا المنبر نعلنهـا مـدويـة إننـا أصحاب حق، لسنا سياسيين ولسنا طلاب فوضى كل ما نطلبه هو العمل.

رفع ورقة ملونة بدت أنها شهادة عليا ونادى:

- أنا طالب دراســـات عليا تخرجت بتفوق وأنا منذ عام عاطل عن العمل، لكنني أطلب من الجميع ألا يحولوا هذا الملف إلى ملف سياسي، نحن هنا لسنا إلا طلاب عمل للعيش بشـــكل كريم وأنا أقولها إذا تم تحويل الملف إلى ملف سياسي فسوف نخسر!

حسن يهمس في أذن صديقه عليٍ:

- تماماً هذا هو توجهك.
- نعم وأتمنى أن يكون هو السائد.

استمرت السجالات طويلاً بين من يبحر في عالم السياسة وبين من يلح على طلب العمل الكريم، في النتيجة أصـبح الملف حاضراً وشعر الجميع أن قضية قد فتحت للتو.

الكثير من الهرج والمرج يدور بســـبب ما عرف بملف العاطلين، يسمعان عنه لكنهما لا يعيرانه اهتماماً كان كل همه أن يعمل دون أن يدخل في تفاصيل كثيرة ،،، ندوات ولقاءات ومناورات سـياسـية، كل ذلك لم يكن يشـغل باله

البتة، فهمه في العمل قد ملأ عقله وشـغله عن التفكير في أي أمر آخر.

في أحد اللقاءات الليلية على عشـــاء بمناســـبة اجتماعية وجد الكثير من التغيير، الشـــباب يتحدث بخطاب مختلف عن المطالبة بالحقوق ومنها الحق في العمل، لكن الأهم أنه شعر بأن هناك إحساس بالمياه الجارية تحت الأرجل، لم تعد الأرجل العارية للرجال الجالســـين في الظل هي أرجل هؤلاء الشـــباب، يبدو أنهم شـــعروا بدفء تغطية الأرجل.

طاب له الحديث مع صـديقه الذي افترق عنه في المرحلة الثانوية، بدا متحدثاً مفوهاً في ذلك المجلس الذي ضـــم الكثير من الرجال:

- انظروا ،،، وهو يصـــف بيده النحيلة مســـتوية أمام جسمه الرشيق ،،، أنظروا ،،، هذا هو مستوى الماء في البحر، في المحيط ،،، الكثيرون في هذه القرى المتناثرة يعيشون تحت هذا الخط، إنهم غارقون لكنهم في كثير من الأحيان لا يعلمون أنهم غارقون، تماماً كالسمك الذي لا يعلم بوجود حياة خارج الماء ،،، إذا أردنا أن نحل المشكلة فعلينا أن نوصل واحداً من كلّ

عائلة إلى فوق الخط ليعرف بالحياة التي تدور فوق ويستطيع أن ينتشل باقي أفراد الأسرة.

على هامش اللقاء طاب لهما الحديث، بعد أن تذكرا تلك الأيام الخوالي:

- تذكر يا علي أول في المدرســـة الإعدادية، كان أول يوم وأنت غائب عن المدرسـة يبدو أنك كنت مريضـاً أو لسـبب ما غبت اليوم الأول ،،، كل المعلمين كانوا ينـادون اسـمك وكنت أتخيلك ضـخم الجثة، من أولئك الشـياطين الذين يشـحنون الفصـل ضـجيجاً وإلا كيف تتجرأ وتغيب الأيوم الأول لا بد أنك كنت مشـــاغباً، هذا ما خطر ببالي ،،، لكنني صـــدمت عندما رأيتك، كنت نحيلاً وصـــغيراً وقليل الحديث، وكان أول كلام بينك وبينك :
- هذا أنت علي! والله شغلتنا؟
- هههههههههه

طال السمر وطاب الضحك مع الصديق القديم " عيسى " تذكرا الكثير ،،، من كرة القدم التي جمعتهما في مراحل مختلفة من أيام المدرســـة إلى الرحلات إلى المســـاجد القديمة والمزارع التي كانت تنظم بين فترة وأخرى :

- عيســى ينتظرك دور في مجتمعك، أنت متحدث مفوه فلا تبخل بما لديك من موهبــة؟
- لا تهتم ،،، هذا أحد الهموم يا صـــديقي، انظر هذه القرية القابعة خلف هذه الجزيرة، لا مدرســـة ولا جمعية ولا أي شيء عندهم، المهمة صعبة بأن تنتشل من يســـكنون هناك، لكن إذا بثثت العلم فإن المهمة ستكون أسهل.
- لم تعد ذلك الفتى النحيل يا علي؟
- لكني لا زلت أكره السياسة؟
- ومن يحبها ،،، إنها كالفتاة الجميلة الماكرة، ما أن تجرك حتى تغرقك في وحلها!
- فأنت من أمثالي.
- ومثلك كثيرون يا صديقي القديم.

تأوه وهو يعود بسيارته حيث يمر على تلك القرية النائية خلف الماء، طرد الكثير من الأشـــباح غير المرئية لكن الكثير منها ظلت تعود إليه، كأنها تتراقص على الماء وتسخر من المارة، تشعل من ضوء القمر المنير اضواء للرقص الساخر، تماماً كالراقص في حفل سرك مبتذل، لسانه الطويل ووجهه الملون يجعلان كلّ شيء كالسطح الأملس.

إنه شريط من قرى متناثرة، جميعها تشترك في ملامسة الماء، ومعانقة النخيل، تنام على الشـــاطئ حيث يتألق القمر، منظرها جميل كحوريات بحر تتمدد بخيلاء على الرمال، لكن ما أن تقترب منها حتى ترى بؤساً وألماً كأن الحورية تبدو حزينة ضعيفة ...

في ذلك اليوم العادي بكل المقياس اتصـــل بـه صـــديقه حســـن الذي بقي عاطلاً كحال زميله ليبلغه أن العاطلين قد قرروا الخروج في مسيرة للمطالبة بالعمل.

علي وقد تذكر حياده: مسيرة ... أخاف نروح السجن بدل الشغل.
حسن: نحن سنطالب بحقنا في العمل، ما بنسوي شيء غلط.
عليّ: أنا عندي تجربة بعمليات التحقيق لما وقفوني بالمطار، و خايف يصير لنا شيء.
حسن: لا تصير خواف، كل المسألة مسيرة نطالب فيها بالعمل.
عليّ: توكلنا على الله.

أطل من نافذته، تأمل الطريق والمارة والأزقة، زينت له نفسه أنه يسير في الطريق الخطأ، عليك أن تنتظر، سيأتي اليوم الذي تعمل فيه ،،، أنت لست المسؤول عن هذه الطرق والمنازل المهدمة، هذا الظل البائس ليس أنت من يداويه ،،، للقرية رب يحميها، سرعان ما راودته أفكار أخرى: إن لم نبدأ اليوم فلن نصل أبداً، طريق الألف ميل يبدأ بخطوة، التردد سيكون على حسابنا وحساب الأجيال التي ستبدأ من بعدنا ...
باليوم التالي كان علي وحسن في صفوف عشرات العاطلين الذين تجمعوا وهم يرفعون أوراقاً وأعلام البلاد،كلّ شيء كان هادئاً، المسافة ما بين الباحة التي تجمع فيها العاطلون ووزارة العمل كانت جرداء،

السيارات تعبر والجو كان فاتراً، نظر عليٌّ للفضاء الممتد بين الباحة ووزارة العمل، شعر أنه فضاء طويل، كثير من المراجعين يهرولون إلى حيث مبنى الوزارة، جموع تخرج وجموع تدخل، بائع الماء والمثلجات أوقف عربته قريباً من باب الوزارة، لا أحد يلتفت للصحف المركونة في جانب من العربة، لكن البائع كان حاذقاً نشطاً.

شعر أنه فيما يشبه اللعبة حيث يبتلع المبنى كل من يدخل ثم يلفظهم ثانية، إنهم كالباحثين عن الذهب في مناجم تحت الأرض، يدخلون بحماس ويعودون مرهقين، ربما هذه هي الحياة، بحث مستمر، يتساءل: متى سيتاح لنا أن ندخل ونخرج مع هؤلاء؟ صحيح أن هؤلاء كما عمال المناجم يقضون حياتهم كالثعلب الجائع، يصرفون عمرهم في البحث عن الثراء ولكنهم يبقون في دولاب آلة الأثرياء يسرقهم الوقت حتى يخرجون على التقاعد، يجلسون في الظلال على الشرفات يتأملون الحياة كيف مضت.

الشمس شيئاً فشيئاً تشتد، إنها تطلق تحذيراتها لأولئك المتسمرين في الباحة أمام الوزارة، والذين بدأ عددهم يتزايد بشكل تدريجي، وبشكل متصاعد بدأت أصوات الحشد ترتفع، كأنها تجهر بمكنون وجع غائر، كأن هناك

اطراد بين الهتاف واللذة، كلما اشـــتد الهتاف زاد ارتياح الحشد.
وجد عليّ وزملاءه راحة وهم يرون الحشـــد قد كثر والهتاف قد ارتفع، بدأ المارة يلتفتون ويتساءلون، أحسوا بأنهم أوصلوا صوتهم لكنه شعر أن صوته يضيع في ذلك الفضـــاء، كأن الفضـــاء يبتلع تلك الأصـــوات المرتفعة تساءل:

- لماذا لا يأتي أحد من داخل المنجم لمقابلتنا؟ ألســـنا مواطنين نطالب بحق طبيعي، كيف نصـطلي في هذه الشمس الحارقة دون أن يسأل أحد من داخل المنجم؟ ربما لم يصـل صـوتنا بعد! التفت فوجد أسـراباً من زملاء يعرفهم في ذلك الحشـد، تأمل جيداً، رأى ذلك الوجه المألوف لديه، فارقه منذ زمن، صـــحيح، لقد تغير كثيراً، بدا وسيماً وأنيقاً لكنه هو هو، الطفل الذي مشـــى في ظل أبيه وكأنه ماعز تقفز خلف أمها، إنه زميل الطفولة في الكرسي الأمامي بالفصل، ذلك هو الفتى الذي ترك في قلبه أثر غائر لا يندمل، إنه السيد الصـــغير عاد اليوم هو ضـــمن أفواج تهتف لتطلب العمل، خطر بباله أن يســـلم عليه بعد تفرق الحشـــد ويسأله عن والده.

بقي يتأمل ملامحه دون أن يلتفت ذلك الشـــاب، يتوقع أنه لن يتذكر فلقد مر زمن طويل على افتراقهما، بالأســـاس هو زميله في الفصـــول الأولى وقد افترقا دون لقاء، لا يعلم أخذته الأيام، ستكون الفرصـة لأعرف أين ذهبت به الحياة، تشـوق لنهاية اللقاء قبل أن يختفي زميل الصـغر، لكن اللقاء لم ينتهي كما أراد، ولم يتســـنى له لقاء ذلك الصـــديق القديم فقد حدث ما حدث، هذا الســيد الصـــغير يحضـــر ويختفي، كـأنمـا يعـاود جرحـه الـذي تركـه في أعماق علي، يتأكد أنه لا زال ينبض ثم يذهب كما يذهب عمه، يختفي عتمة الأزقة، يخشى علي أنه شبح.

في منتصف الوقت أطل جمع متأنق من داخل المنجم، بدا أنه الفرج بالنسـبة للمتجمعين في ذلك الحر الحارق، تقدم إليهم أربعة رجال، تحدث أحدهم:

- أنا المدير وعليكم أن تختاروا ثلاثة ممثلين للاجتماع بالوزير...

بسـرعة تشـاور الجمع فاختاروا ثلاثة بينهم علي، ذهبوا إلى حيث باب المنجم، حيث يهرع الناس وســـرعان ما يختفون ويظهرون مرة أخرى، شـــعر أنهم في موقعهم، تبتلعه بوابة المنجم الكبيرة، مشـى حيث مشـى الجمع في صـمت، كان الأمل كالضـوء السـاطع في طريقهم، أخذوا

إلى حيث الطابع السـابع من المبنى وهناك جلسـوا طويلاً حتى جف عرقهم ، كان ينسج الكلام الذي سيقوله للوزير حين يدخل عليه، تخيل إنه سيخرج وقد طويت الصفحة، تخيل نفســـه وقد ابلغ الحشـــد خارج الوزارة أن الوزير وافق على توظيفهم فوراً بســـبب كلمته التي ألقاها للتو عليه فما كان من الوزير إلا أن وقع دون أن ينبس ببنت شفة، الجمع يفزع صارخاً فيحمله على الأكتاف، استيقظ من حلمه القصـــير ليجد المدير أمامه مرة أخرى ، ثوبه الأنيق الأبيض ينسدل وغترته طرزت بالشال ،،، تحدث :

- يؤسفني أن أقول لكم أن الوزير لن يستطيع مقابلتكم، جاءه هاتف طارئ فخرج، ولكن الوزير يعدكم بحل المشكلة وكل ما عليكم أن تكتبوا رسالة بها!
- لكننـا هنـا ولم نرى الوزير يخرج، هكـذا رد أحـد أعضاء الوفد بعفوية!

أجابه المدير:

- باب الوزير من الخلف إنه لا يخرج من باب الناس العاديين.
- أوه، ويا ترى ليه شارع بروحه بعد يروح البيت فيه؟
- تطنز ،،، شكلك ؟
- عفواً ،،، بس احنا جينا بناء على طلبكم !

- هذا لا يعني أن تقلا أدبكما، لكن وعقاباً لكما لم نستلم منكم أي رسالة، وعودا من حيث جئتم.

بصمت حملتهما أرجلهما إلى حيث ينتظر الحشد، وجدوا الوجوه قد ذبلت من حرارة الشمس فأبلغوهم بفشل المساعي فقرر الحشد الاستمرار في اعتصامهم وبغضب أكبر.

طال وقت التجمع وارتفعت الأصوات، بدأ الجو يزداد اشتعالاً، والشمس أصبحت حارقة، لا مجال للتراجع للخلف، الحماس على أشده والعودة تعني اليأس، عليهم أن يمضوا قدماً، بعد لحظات حضرت بعض القوات وبدأت تهاجم وتعتقل المتجمعين، وخلال دقائق وجد علي وحسن نفسيهما في شاحنة الشرطة وهي تتوجه لقسم التحقيقات وترمي بهما صوب خيمة نصبت في الشمس.
قال حسن لعلي وهو بجانبه في الشاحنة:

- صدقت يا علي، ربما نذهب للسجن بدل الحصول على العمل !!!
- لا تقنط، عندما تسلك الطريق الصحيح فعليك أن تتحمل العواقب.
- لم تكن بهذا الجلد قبل أن نقرر المشي في هذا الطريق؟

- لكننا اتخذنا قرارنا عن قناعة وبعد تفكير عميق، نحن لم نفعل إلا ما كان يجب أن نفعل ولذلك لا داعي لجلد الذات.
- صدقت يا صاحبي، ماذا وراءنا دعنا نجرب الحياة، أول مرة سنرى شيء اسمه السجن، ويمكن يطلع شيء زين مو مثل ما يقولون؟
- يا صديقي ،،، علينا أن نعيش لحظاتنا بتفاؤل حتى ونحن في أسوأ الظروف، على الأقل حالنا ليس كمثل غيرنا ممن يعيشون مجاعات.
- ربما سأصدقك، سأجرب أن أكون متفاءل مثلك وأنا أجر إلى السجن كالكبش وأنا من تخرجت بعد عناء من الجامعة وكل طلبي هو العمل.
- يا عزيزي التفاؤل لا يساوي الرقص أو الطرب، التفاؤل يعني أن تكون قوياً وأن تختار طريقك بكل صلابة.
- إذا كان التفاؤل هذا فأنا معك فيه لأنني لا أستطيع إلا أن أشعر بالمرارة والألم وأنا في هذه الشاحنة النتنة.

ناما ليلتهما في العراء فقد كانت الخيمة الصغيرة ممتلئة بآخرين من المحتجين وعند الصباح بدأ الحراس بمناداة كل واحد باسمه ليتم التحقيق معه وعندما نودي باسم علي

نهض وهو ينظر لصـديقه ولسـان حاله يقول له: ألم أقل لك أننا قد نذهب للسجن ...

مشى خلف الشرطي صوب مكتب الضابط المحقق وقد بدا بحالة يرثى لها...
خطى بضـع خطوات وظل واقفاً ... نظر للوجه الذي أمامه ... فتح عينيه جيداً ... إنه وجه مألوف ... الضـابط ينظر له بذهول ... في نفس الوقت يهتفان:
سعد ...
علي ...
غير معقول ....
ويش وصلك هني يا علي ...
الدنيا يا سعد جابتني هني ...
بعد صمت سعد يخاطبه: أنا مضطر أحقق معاك...
علي: هذا عملك .....

انتهى التحقيق ولم يعرف علي ما معنى كل ذلك ... شعر ان الحياة عبارة عن لعبة فكيف ينتهي به الأمر في غرفة تحقيق مع صـديق عمره لأنه ولد في تلك القرية الفقيرة البائسـة، تيقن أن اللعبة سـتنتهي وأنه سـيخرج منها لأنه غير قادر على كسب المعركة.
قال لنفسه: هل هذا هو اليأس.

أجابها: ربما.

لم يقل الكثير إلا أنه استدار صوب سعد وهو يخرج من المكتب منكسراً وقال: حضرة الضابط ... هل ستفرجون عني وعن صديقي حسن ...

الضابط: سنفرج عنكم

شـــعر بأن الدنيا تفتح أبوابها له من جديد، لمح في عيني سـعد وهج محبة مكتوم، نهض سـعد واتجه للباب، أغلقه واحتضن علياً وبكى.

- الموقف صعب يا صديقي...
- أنت عليُ الذي رافقني أحلى ايام عمري، وأنا سعد لم أتغير، فكيف تحملنا الحياة لنتواجه، لنتصـــارع، إنها الحياة تقودنا إلى حيث لا نرغب.

أراد عليٌ أن يســتدير ليخرج من المكتب، فقد شـــعر أن الموقف أصعب من أن يحتمل، سبقه الضابط سعد للباب، أمسك به...

- لم ننتهي يا صـديقي، الآتي أصـعب، هناك أمر لا بد أن أخبرك به، و هذه هي الفرصـــة التي جاءت من حيث لا أحتسب.

- ما هو الأمر؟
- علاقتك مع نورة؟
- كنت أتوقع أن هناك حدث كبير، لكنني لم أفهم ما يجري! تفضل؟

- ستخرج من هنا، سأحرر محضر الإفراج عنك، لكني لدي شرط!

- أنت تأمر يا حضرة الضابط.
- لازم تقطع علاقتك بها ... تقدم لها واحد من العائلة عنده منصـــب كبير وأنت ما تبغي حياتها تخرب ... إذا كنت تحبها فلازم تضحي علشان سعادتها .

- علي: هذا كلام رسمي ولا شخصي

- الضابط: هذا سعد يتكلم ...

- علي: هي ما رأيها ...

- الضـــابط: إذا ســـهلت عليها المهمة بقطع العلاقة فستكون ممتنة ...

- علي: يعني هذا خيارها؟

- الضـــابط: تقدر تقول جذيه ... وضـــغط على شـــفتيه وكأنه تمنى أن ينتهي الحوار لكن علي استرسـل: إذا كان خيارها فسأحترمه.

- ســـعد هذه المرة وليس الضـــابط متوثباً وكأنه انتفض ليقول كلامـاً يقطع بـه الحوار: اســـمع يـا علي ... الماضـــي شـــيء واحنا نعيش وقت ثاني، ما أبغي أجرحك لكن نورة ما كانت تعتبر العلاقة بك جدية، كانت صغيرة، الحين فهمت الحياة وهي تريد أن تشق طريق مســـتقبلها الذي لا يمكن أن يرتبط بحياتك ... طالع نفســـك في وين؟ في التحقيق وما تدري يمكن تنسـجن ... آسـف لكن أنت بطريق مختلف ما يتلاقى مع طريق نورة.

أطرق علي ورمق سعد بنظرة ولم ينبس ببنت شفة واتجه صـــوب الباب وكأنه أراد ألا يريح ســـعد رغم أن الجمل الأخيرة كانت قد حســـمت المعركة في مشـــاعره وعقله فالواقع يلزمه بأن ينهي هذه العلاقة.
عندما همّ بالخروج من المكتب وجد ســـعد وقد هرول صـــوبـه، مـدّ ذراعيـه إليـه، عـانقـه وهو يتـأمـل عينيـه

المرهقتين، بكيـا طويلاً وهو متعـانقـان... أحس عليّ بحرارة جسد سعد وكأنه تدب بداخله... خلص جسده منه واستدار للباب.

خرج من المكتب ليجد زميله حسن وقد انتهى من التحقيق ليأخذهما شـــرطي إلى حيث مكتب إجراءات الإفراج ... هناك كان الشرطي الذي أخذ يكتب اسميهما بلغة مكسرة ...

- شلكم بالمظاهرات ... انتو متعلمين ... الحين بطلعون بس لا تعودون مرة ثانية ....

في سيارة أخو حسن الذي جاء ليأخذهما كان حسن يعتذر لعلي لما حصـــل فأجاب علي: لا تعتذر أنا فتحت عينيي على الحياة اليوم أنت ســويت شـــيء كان لازم أفهمه من زمان ....

حسن: ما فهمت ويش تقصد؟
علي: أقصـــد أننا لا يجب أن نتوقف حتى نحصـــل على حقنا في العيش الكريم ...
حسن: يعني ويش نسوي؟
علي: ســننظم المســيرات كل يوم حتى لو ســجنا ومهما جرى؟

حسن: كلامك غريب؟
علي: ليس غريباً أبداً ... السجن أفضل من المهانة؟
شعر علي إنه لا يستطيع العيش بهذه المرارة التي لسعت أعماقه الدامية من الأســـاس ... تذكر الطفل الصـــغير ومضايقة زميله في مقعد الدراسة ... تذكر جاره الضخم وكيف لطم الحاج ناصـر ... تذكر قسـمات يد جده وعمه وهو يختفي في ظلمة الفجر ...
عاد للواقع وتذكر أن صـديق عمره الذي تنفس معه هواء الفصـل لمدة ثلاث سـنوات وقاسـمه سـندويشـات الجبن وعلبة الكولا قد حقق معه وأغلظ في لومه ...
تذكر أنه طلب منه أن يبيع قلبه وحبه لمجرد أن يدور في دولاب خارج خارطة الزمن ...
تأمل وقال: يبدو أن علي أن أعيش وأهلي وأصـحابي في بيوت الطين ونكتـب مـذكراتنـا في جـدران الملح إلا إذا قررنا غير ذلك ...
قال لحسن: أتعرف من حقق معي، إنه سعد صديقي ... وقد طلب مني أن أقطع علاقتي بمنيرة ...
أطرق حسـن وقال له: لا يجب أن يكون النضـال لسـبب شـخصـي ... حسـن الذي خالط بعض الشـباب الثوري لامس بعض الأفكار فردد: لا نريد أن نناضـل من أجل مطالب شخصية إذا كنا سنتظاهر فليكن لمطالب عامة ...

علي: إحساسي بالمرارة ليس شخصياً إنني سأخرج للتظاهر من أجل الحاج ناصر وعمي الذي مات مغبوناً تبتلعه عتمة الفجر ...
من أجل عمتي التي تنام وهي تلعن الفقر لأنها لا تملك إلا ثوباً بالياً يظهر أبطيها ...
سأتظاهر ليعمل أبنائي إن كان مقدر لي أن أنجب أبناء ...
من أجل أن أتنفس ... من أجل أن أكون أنا وسعد أخوة وليس ضابط وعاطل ...
من أجل أن يتمكن حفيدي الذي سيأتي من بعدي من طلب يد زينب أو نورة أو أي فتاة يهتف لها قلبها ...

بعد أن اغتسلا جلسا في غرفة علي وجلب الهاتف وأخذ يتصل ليدعو لمسيرة الغد ... البعض يوافق وآخر يرفض وآخر يفرح ورابع يتردد ...
وعلي مصر على خروج المسيرة ووقت المسيرة كان هو في المقدمة.

بدأ الوضع يتأزم وتحذيرات الشرطة تتزايد وتنصح المتظاهرين بالمغادرة ولكن علي يصر ويدعو المتظاهرين للتمسك بحقهم ...

الشـــرطة تهاجم المتظاهرين وبعض المتظاهرين يقرر الدفاع عن نفسـه بقذف الحجارة فتقرر الشـرطة أن ترمي المتظاهرين ...

عجباً فالأرض تغلي تحت الأقدام والدخان يتصـــاعد والفوضـــى تعم، وتمتد تلك الحـالـة للعديد من المواقع وتخرج الأمور عن السيطرة.

لا يعرف علي إن كـان الأمر يخص العـاطلين أم أن الموضوع تلاقى مع العديد من المطالب ففي المساجد بدأ الحديث عن سـلسـلة من المطالب بينها توظيف العاطلين لكن الحديث عن البرلمان المعطل قد بدأ أيضاً.

في الصـــبـاح ســـمع علي أن الأمور تطورت فهنـاك اشـــتباكات مع الشـــرطة في أكثر من منطقة وأن الأمور تزداد احتقاناً وملف العاطلين أصـــبح واحداً من الملفات المختلف عليها.

ليلة باردة تلك التي أرخى علي جســـده فيها على سريره وهو قلق بأن تحمل له الساعات الأخيرة من الليل أنباء محزنة فقد تعود في الأيام الأخيرة بأن يسـتيقظ على

أنباء اعتقال أحد جيرانه أو أحد أصـــدقاءه أو حتى أحد أبناء الحي.

لم يمهله جسـده المنهك فغط في نوم عميق ، وفجأة وفيما بدا أنه منتصف الليل سمع دوي ضربة قوية لم يدرك أنها ضربة على زجاج الباب الخارجي المطل على غرفته إلا بعد أن فتح عينيه فوجد عشـــرات من ذوي المعاطف الخضـراء وهم يحيطون بسـريره ويجوبون الغرفة بحثاً عن شـــيء ما، أمســـك أحدهم بيد علي فيما كان خلفه رجل ملثم بلباس مدني أمره بارتداء ملابســـه، تذكر أنه يخاف من رجال الشـــرطة ولم يدري كيف اســـتدعى بسرعة تلك المرة الوحيدة التي اقترب فيها من أحد رجال الشـرطة حين كان صـغيراً عندما وجهه خاله لجلب علبة ســجائر للشــرطي الذي كان ينتظر دوره لشــراء اللحم، تذكر أنه فر هارباً عندما وقف أمام الشرطي الضخم وما كـاد الأخير يخرج بعض المـال من جيبـه إلا وعلي قـد سابق الريح، تحسر أنه هذه المرة لا يستطيع أن يفعل ما فعلـه وهو طفل وبـدون مقـاومـة لبس بنطـالاً وقميصـــاً ومضى مع الجمع.

شـيئاً فشـيئاً بدأ يسـتوعب ما يجري، إنه الاعتقال وهؤلاء زوار الفجر، المصـــابيح الكاشـــفة الكبيرة كانت مســـلطة

على باب المنزل تحاول أن تبدد ظلمة آخر الليل الدامس، وجد نفسه عند باب سيارة صغيرة ويد أخرى تستلمه وذات اليد تضع ثقلها على رأسه كما يحدث في الأفلام، لأول مرة يشعر بأنه مقاد ومسلوب الإرادة فتلك اليد الجامدة جعلته يحني رأسه وهو الذي لم يعرف الانحناء قط.

نظر من النافذة فوجد الجدار أمامه وبينما كانت حركة الشرطة تدب لتقطع عسعسة الفجر وصمت الجدران الكئيبة، كان يتأمل الجدار الذي طالما تناجى معه ويد الحاج عبد الله وهو يودع ابنه عيسى ماضياً للعمل عند الفجر، تخيل يد الحاج الضرير وهي تتحسس الجدار ليساير ابنه قبل أن يختفي في عتمة الزقاق، قال في نفسه قد يكون آخر وداع للجدار فلعلي لا أعود أو لعله يهدم فمن يدري كم سأبقى في السجن، شعر بأن يتحسسه، الباب القديم الذي يخرج منه عيسى فجر كل يوم كان دون حراك والظلمة تخفي قبضة الباب عن أعين الشرطة.

تحركت السيارة بسرعة ليجد نفسه أمام بوابة مبنى التحقيقات مرة أخرى، لكن هذه المرة وجد نفسه في وضع أشد فالاعتقال الماضي بدا بالنسبة إليه كنزهة،

وجد نفسه ضمن مجموعة كبيرة من المعتقلين وهو ما أشعره بنوع من الراحة، ألقت عدد من السيارات بجموع المعتقلين في باحة تتوسط المكاتب وأمر الشرطة المعتقلين بالوقوف متجهين للجدار، وانقض الشرطة على المعتقلين يعصبون أعينهم ويكبلون أيديهم ملوية خلف الظهر، وهنا جاء صوت أجش:
ستبقون هكذا واقفين، وكل من يتحرك أو يجلس سيلقى جزاءه.

طوال الليل وعلي كما الجميع وقوف، مع مرور الوقت بدأ يشعر بأن الدم لا يتدفق إلى الجزء الأعلى من جسده، كان يحاول أن يعدل وقفته ليواصل، لكنه شعر بأنه يضعف بشكل تدريجي، وكان ضعفه يزداد كلما ازداد أنين بعض المعتقلين خصوصاً من المرضى أو الكبار في السن نسبياً.

بعد منتصف الليل بدأ الهواء البارد يشتد وبدأ يشعر بأنه عاجز عن الوقوف فمال صوب المعتقل بجانبه وقال له:
إلى متى سنصبر، يجب أن نتحدث ....
أجابه بصوت متقطع: ماذا نفعل، ليس لنا إلا الله؟
علي: لكن لماذا نحن هنا؟
أجابه: لا أدري!

سـمح الشـرطة للمعتقلين بأن يسـتلقوا على الأرض بعد منتصـف الليل ولشـدة التعب ارتمى علي يحاول أن ينام لكن برد الجو حرمه من ذلك، حاول أن يمد رجله لرجل صـــاحبه الذي بجانبه عله يدفأ وبالفعل تلاقت الأرجل وتشـابكت بين أربعة من المعتقلين في محاولة للعيش في ظرف يشبه الموت البطيء.

عند الصـباح شـعر بأنه قد وصـل لدرجة من الضـعف الشديد وقد شعر بالفرج عندما بدأ الشرطة يسمحون لكل معتقل بالذهاب لدورة المياه لدقيقة واحدة.

عشرة أيام قضـاها علي في العراء ينام ويستيقظ، أكل ما يكفي من الرمل والغبار وكان يسـمع كل شـيء وهو نائم والقلق يعتريه بكل لحظة تمر بأن يجر إلى ناحية المكاتب التي يأتي منها صمت يلف المكان كله، وأخبار بأن خلف المكاتب ما يشيب الرأس، قال له الذي بجانبه: حاذر فهذه المكاتب قد ترمي بك في سجن تحت الأرض يقية عمرك. تذكر أنه وضـع في كيس بنطاله نشرة حملها من المسـجد يوم أمس ونسـي أن يتخلص منها، قال لصـاحبه تحسـس كيس بنطالي هل به ورقة ما، بصـعوبة مد صـاحبه يده لكيس بنطاله لكنه لم يجد شـيئاً فشـعر بالراحة أنه تخلص منها وإلا كانت سبباً لقذفه في السجن سنين عددا.

تجرأ مرتين فسأل اثنين من الضباط عن سبب بقاءه هنا وقد سأله الضابط الأول عن اسمه فأجاب ببساطة: علي ...
فرد عليه الضابط: اسمك الكامل!
فرد علي ببساطة أكبر ونطق باسمه كاملاً ...

الضابط وهو يردد الاسم: سيأتي دورك لا تستعجل ...

في اليوم العاشر وفي الصباح جاء شرطيان واقتاداه إلى حيث ممر ليس بالطويل تتناثر فيه أبواب من الفولاذ، لأول مرة يرى المشهد وهو الذي كان يتوقع أن يتجه به الشرطة شرقاً أي صوب الباب الخارجي للمبنى وجد نفسه يغوص في الأعماق، قال في نفسه، إنها غرف السجن، شعر بقشعريرة في بدنه وبحزن في نفسه وهو يتخطى الأبواب حتى وصل لباب ما، فتح شرطي الباب وقذف به.

وجد نفسه في مكان ضيق وشعر بأن أنفاسه تحتبس تأمل الوجوه التي تناثرت في الزنزانة الضيقة، لم يجد أي ملامح سوى لحى سوداء طويلة، اتجهت العيون صوبه، ألقى السلام فقد خشي منهم، رد عليه أحدهم، استدعى صورة دخول السجين في الأقلام المصرية وقال في

نفســـه: من هم هؤلاء ... تصـــفح الوجوه وقبل أن ينطق بشيء قال: كيف تعيشون هنا، أشعر أنني سأموت خلال ساعات.
رد عليه ذات الشخص الذي رد عليه السلام: لا لن تموت كلنا كنا نقول إننا ســـنموت لكننا عشـــنا، طالعنا ويش حلاوتنا.
استغرب علي أن يكون لهذا الرجل بقايا من حس دعابة، تأمل وجهه فوجده أصفر شاحب ولحيته المتقطعة تكشف أنه شاب لكن الدهر أكل منه مأكله.
اقترب منه علي وقال: لكن ما فيه هواء، شـلون تعيشـون بدون هواء.
أشار السجين بيده لأعلى وقال: انظر هذه الفتحة الضيقة تأتي بما يكفي من هواء لنعيش.
كالأبله أخذ يتصـــفح ذلك المكان الضـــيق، إنه لا يتجاوز ســـعة الحمام الذي بناه في غرفته، لا تتجاوز ثلاثة أمتار طولاً وأقل من مترين عرضـــاً، بينما الوجوه المتناثرة تصل إلى 12 فرداً، سأل ببلاهة أكبر: كيف تنامون؟
أجابه صـــاحبه: لا تخف على كل ســـرير ينام عليه اثنان وبذلك يكون ثمانية منا على الأســـرة بينما يدس أربعة آخرين أجسادهم تحت الأسرة بشكل معترض.
علي: لكن عرض الغرفة لا يكفي لطولي!

صـــاحبه: عليك أن تتعود النوم ورجلك مرفوعة على الجدار.
علي: ولكن ذلك يؤدي إلى عدم تدفق الدم للرجلين.
صـاحبه وقد كاد ينفجر من الضـحك لكنه يكتم ضـحكته: ذلك إذا بقي في جسدك دم يتدفق.
أطرق قليلاً وهو يشـعر بأنه في عالم آخر وإذا بصـاحبه يسأله: شسمك يا خوك؟
علي ... علي ...
من وين؟
من القرية ....
تشتغل؟
لا تخرجت من الجامعة وأنا عاطل.

بدأ يلمح ابتسامات على تلك الوجوه الصفراء ذات اللحى الطويلة لكنه لم يكن يســتطيع أن يســترســل فطلب أن يستريح.
قال له من بدا أنه الناطق الرسـمي باسـم المجموعة: يبدو أنك متعب وقد جئت من رحلة شـــاقة لذلك قررنا أن نعطيك سريراً بشكل استثنائي وبكرة نتحدث إن شاء الله عن قواعد السكن في هذا الفندق.

أرخى جسده المنهك على السرير لكن النوم غادره فظل يسمع حديث الجمع، عرف إن من تجمعوا قسراً هنا هم قرى مختلفة وأنهم يختبرون كل من يدخل الزنزانة خوفاً من أن يكون مخبراً وعرف أنهم جميعاً معتقلون بتهمة تأييد المطالب الشعبية، سمع بعض الأسماء، عيسى وحسين ومحمد وأزهر، عرف من خلال الحديث أن بعضهم صغار في العمر وأن طول لحيتهم المبعثرة خدعته عند دخوله عالم الزنازين الضيق إذ كان غير قادر على التركيز، شعر بتضامن كبير بينهم وشعر بأنهم يخفون حس دعابة يقتاتون عليه في هذه الغرفة رغم ما بداخلهم من جراح وما بجسدهم من ضمور.

ظل الوقت ينسل والتمتمات تتردد متقطعة حتى الصباح حيث القرع الشديد على الأبواب ولم يكن يعرف أنه نام أم لا، وجد الوجوه أكثر تبسماً، تأمل بعد أن تهيأ للصلاة حيث لا مكان يمكن أن يمد جسده لركوع أو سجود ودون أن يسأل لحظ الخفة في تكوير أجساد رفاقه في مساحة تقل عن النصف متر، بعدها بدأت جلسة طويلة كان السجناء فيها كالطيور المنهكة على شجرة يابسة تتدلى أرجلهم من أعلى الأسرة البائسة وهم يتكورون محاولين تشكيل حلقة متصلة في ذلك المكان الضيق، سأله أحدهم هل تشعر أن الغرفة ضيقة فأجاب: جداً.

فقال له: نحن نشـــعر أنها واســـعة والمســـافات بعيدة، المســـافات هنا تبدو مختلفة عنها في الخارج فبيني وبين أزهر الذي تعلق في طرف السرير العلوي مسافة كبيرة، هنا تعلمنا كيف تكون الخصـــوصـــية ونحن ملتصـــقين ببعضنا، قريباً ستكتشف العالم الواسع الذي نعيشه.

شـعر علي أن داخل هذا الشـاب الصـغير فيلسـوف كبير فســـأله: أنت من وين متخرج فأجاب: أنا طالع من أول إعدادي!
علي: ولكنك تتحدث بلغة الفلاسفة الكبار.
علمنا السجن الكثير من الأمور.

سرد علي قصته منذ بدايتها والجمع يصغي بانتباه شديد، الوقت يزحف ببط ء والجمع مستمتع لولا صوت المفتاح يؤذن بفتح باب الزنزانة واثنين من الشرطة يتفقدون عدد المسـاجين، بلا اهتمام قابل السـجناء التفقد سـوى عيسـى الذي أطلق نتف نكات مع أحد أفراد الشرطة.

كأن اليوم الأول لا يريد أن ينقضي وكان هو يتحسس كل شـيء ليسـتوعب الحياة الجديدة، وفي المسـاء فتح الباب مرة أخرى وبصـــمت قذف بأحدهم في الزنزانة، كان الجمع موزع بدقة على كل شبر يمكن أن يستوعب جزء

من أجزاء البشـــر، وبعد مغادرة الشـــرطة ظل الزائر الجديد واقفاً والعيون تنظر له إذ لا مكان يمكن أن يدس فيه جزء من جسده، يبدو أن الرجل صاحب خبرة سابقة إذ رفع سلة المهملات الصغيرة وتكور بكل جسده مكانها ومال على جسد آخر ونام.

ضـــاق المكان بالجمع وكالعادة حاول الحشـــد فهم الزائر الجديد فوجدوه من ذوي الســـوابق وســـرعان ما دب بينه وبين محمد ذو الابتســـامة الناعمة خلاف بســـبب طريقة استخدامه لما أسميناه تجاوزاً (حَمام)، ارتفعت أصواتهما وما هي إلا ثوان إلا والشرطة أمام الفتحة الصغيرة للباب ينظرون والشرر يتطاير من أعينهم وبصوت حانق:

من أحدث الضجة؟
ساد الصمت فعاود الشرطي السؤال: إذا لم تحددوا من أحدث الجلبة فالعقاب سيعم الجميع!
نهض محمد بتثاقل وقال: أنا.
أنت إذن تعالى معنا.

اقتيد وهو صـــامت وســـاد صـــمت وحزن وما هي إلا لحظات وإذا بصـــوت محمد يتعالى بشـــكل تدريجي، يصـرخ كلما وقع السـوط على جسـده، لحظات ألم كأنها

الدهر بعدها جيء بمحمد وهو يزحف لأنه لم يكن قادر على المشـــي من شـــدة الضـــرب، رمي في الزنزانة فاحتضنته أيدي الجمع فاستلقى وهو يبتسم وقال: أحد ... أحد.

يبدو أنهم معتادون على وجبة الجلد وبحس الدعابة ظل محمد يقاوم الألم، نظر علي لظهره فوجد السوط قد حفر خطوطاً عميقة وكأنها لوحة مزخرفة بالكراهية، ونام هو والجمع على تأوهات محمد الذي بقي طوال الليل يأن كالعليل الذي ينتظر الموت.
بسماعه لأنين محمد تذكر ألمه وهو صغير عندما كان ينام وهو يسمع أنين الماعز التي ربتها أمه وعندما كبرت مرضت لأيام كانت فيها تأن بشدة.

في اليوم التالي بدأ علي يعتاد الجو وبدأ يفهم هذا الفسيفساء المتشكلة عنوة في قعر زنزانة صغيرة، وبدأ يسأل نفسه عما إذا كان ما يعيشه وهم أم حقيقة، حاول الاقتراب من النافذة وهي عبارة عن فتحة صـــغيرة في جدار إسمنتي عريض مغطاة بأعمدة من فولاذ صدئ لا يكاد من يحاول النظر منها أن يصـــل للعالم الخارجي بعينه، تطل على باحة فارغة بداخل المبنى لكنه وجدها تعينه على التنفس أكثر.

بعد شهر من مكوثه بدأ ينسى العالم الخارجي وبدا وكأن هذا العالم محض خيال لم يعرفه، كما يتقافز عيسى المرح أمامه تتقافز أسئلة حقيقة الوجود لتشكل له مرارة فوق مرارة السجن، يسأل نفسه أحيانا : هل السجن كذبة أم أن ما كنت أعيشه في العالم الخارجي وهم كبير، لشدة ألمه من أن من يحبسونه في هذا المكان الضيق هم أخوة له كانت تتحول الأسئلة إلى ما يشبه الهوس، وفي ذلك الحين كان يتعرف على فنون السجن حيث يبدع السجناء صناعة أشياء غريبة، مرة وقد سرح كعادته جاء عيسى له بمشط صنعه من بقايا خشب وقرطاس وقال لعلي: أشوف شعرك طويل تحتاج تمشطه.

تأمل المشط قبل أن يمرره بين شعر رأسه وأفكاره تراوح ذهنه الذي بدا مرهقاً لقلة النوم والتفكير ... أفسح المشط المجال له للسؤال عن أشياء أخرى فبادر عيسى: هل لديكم أشياء أخرى؟

أجاب: ليس الكثير، لكننا نعمل من الخبز اليابس جبساً لنقيم بعض السهرات الممتعة، بالفعل نظر في للأعلى فرأى بقايا الخبز وقد نشرها الجمع لتتيبس، تساءل: هل تأكلون هذه الكسرات؟

أجابه عيسى: نعم ونستمتع بها كما ستفعل أنت معنا في الأيام القادمة.

علي الذي بدا هادئاً متجلداً وكثير التأمل كان مختلفاً لكنه لاقى الكثير من الاحترام فقد وجدوا فيه المفكر والمثقف وبأحد الأيام اعترت ياسر نوبة تشبه الجنون من الضيق وبدأ يصرخ من شدة الحر ويمزق ملابسه وكان يصرخ: أريد أن أموت! أصحابه يحاولون تهدئته فمصيره سيكون الصـــلب والجلد على ما فيه من ضـــيق وألم لكن دون جدوى، لكن عندما بادر له علي تبسم في وجهه وأمسك برأسه وقبله، استمتع بممارسة دور المرشد النفسي وهو يمســـكه ويتأمل عينيه ويقول له: عزيزي، ألم تقرأ قول تعالى: قال الســـجن أحب إلى؟ انظر القرآن يقول إن السجن يكون محبوباً أحيانا، ثم استرسل بعد أن سكن ياسر: أنت هنا في مرحلة من حياتك وسوف تنتهي، دع النهاية لله ولكنك ستخرج، الله يدبر الأمر، لا تستعجل، فقط اســـتفد من هذه المرحلة! ياســـر بدأ يهدأ والجمع يستغرب ما فعل به سحر كلام علي، ألصق علي جسده بجسد ياسر وشعر بالدفء، وهمس في أذنه: كم أخ لك؟ أجاب: أربعة، قال علي: هنا لك أحد عشـــر أخ، بل أحد عشـــر كوكب، ألا ترى أنهم حزنوا لما انتابك، هل تريد أن يتحول الجو هنا إلى حزن، الجميع صامت بينما علي يناجي ياسر لساعات ثم عادت ابتسامة ياسر وتحول علي إلى ما يشبه الأب للمجموعة.

كان يداوي جراح الجميع بعد كل حادثة وبعد أن يؤخذ كل واحد منهم ويعود لكن الجمع لا يعلم إن به جراح غائرة وأن بداخله قلب مرهف بسبب جدران الملح ومنظر السيد الصغير ومعونة الشتاء ومنيرة وسعد وقصة حبه لزينب التي لا تفارقه، يبدو أنه كان منشغل بمداواة الجمع لكنه بدأ يشعر بالطمأنينة كما كان يسامر جدار الملح من قبل.
بعد ثلاثة أشهر نسي في تلك الزنزانة كما ظن جاء أحد الشرطة ونادى من فتحة الباب: أين علي؟ نهض وهو لا يعرف ما يجري فبادره عيسى تذكروك، الله يساعدك فقال علي: لماذا: قال: الوقت وقت تحقيق، تجلد واصبر الله معاك.

مشى مع الشرطة والأفكار تضطرب بعقله وبدأ الخوف يتسرب إلى قلبه، تخيل كل شيء، تخيل كل شيء لكنه عندما أدخل وجد رجلاً واحداً يسأله عن اسمه وعمره وعمله .... وهو يجيب ورعشة في صوته، سأله عن التظاهرات فنفى علمه بها وعن أعمال العنف فقال إنه لا يؤيدها.
استدار المحقق إليه وقرب وجهه منه وقال: علي، سأكلمك بصفتك رجل متعلم: هل ما يجري من عنف

صـــحيح، هل تؤيد تخريب ممتلكات الناس؟ أجابه لا بكل تأكيد ...
سأله المحقق: لا فقط؟ هل تريد أن تقول شيئاً؟
علي: إجابة هذا السؤال لا ولا زيادة عليها.
استلطف المحقق إجابته فاسترسل: ولكن ما رأيك فيما يجري بشكل عام؟
علي: الحكومة تتحمل جزء من المســئولية فيما يجري فماذا تريد من شــاب عاطل ومحبط وقد سـدت أمامه كل الأبواب أليس من حقه أن يخرج في اعتصام سلمي؟
المحقق بتهكم: سلمي؟
المحقق: علي إن ملفك نظيف وأنا أبشــرك أنك سـتخرج وأنت هنا حتى تهدأ الأمور فقط، كلها فترة وتطلع، بس إياك والعنف.
علي: أنا أكره العنف.
المحقق: سأقدم لك مكافأة.
علي: أشكرك ظن أنه سيبلغه بأنه سيأمر بالإفراج عنه.
المحقق: ســأســمح بأن يجلب أهلك الثياب والأكل، هناك من أوصاني بك، وأنت لا تحتاج توصية؟
علي: شكراً على هذا اللطف، من أوصاك بي؟
المحقق: أحدهم! وهو يتبسم
قبل أن يخرج علي من المكتب قال له المحقق: سعد يسلم عليك ويقول لك بتطلع، بس شوف مستقبلك.

بذات الليلة وعندما عاد لازم النافذة وكأنه يدخل المكان لأول مرة وضع رأسه على الحديد وغفا، على أصوات السيارات تجول في الشارع المجاور وأخذ مقعده مع صديق له في أحد مطاعم الوجبات السريعة ، التهم ثلاث سندويشات من الحجم الكبير مع علبة كبيرة من البيبسي، مد ظهره ورمى ببصره لخارج المطعم ونظر لثلاث نساء أسيويات وهن يتمايلن على الرصيف المقابل ويصدرن ضحكات كالعصافير الصغيرة، قال لصاحبه وقد تذكر زينب الملاك الذي استقر في قلبه ولم يفارقه، خذني لمنزلي أريد أن أقابل حلم عمري، كان يخاطب صديقه كما الهائم، بالفعل أخذه صديقه إلى حيث منزله فنزل وهرع إلى حيث شق الجدار الذي يطل منه على ذلك الحلم (زينب)، نظر فوجدها تطل ولم تبارح المكان، تأملها بملامح جذابة وقد ازدادت جمالاً وألقاً ....

في الأثناء شعر بيد تربت على كتفه فتح عينيه فوجد أنه يحلم، شعر بمرارة كبيرة لأنه مكبل وما زاده ألمه عودة صورة زينب إليه.
عاد وقص على صحبه ما جرى في التحقيق وبعد أيام وصل أول كيس به بعض الملابس وبعض الأكل وكان من عائلته ولشدة فرحته ظل يقلب الطرد من كل جوانبه

عله يشـــعر على كلمة أو إشـــارة، لكن دون جدوى ليس على الطرد إلا اسمه وبأسفله كلمة موقوف.
مضـــت أيام وعاد إليه طرد آخر لكنه هذه المرة حمل له البهجة التي لم يتصورها، إنه من عائلته لكنه حمل بعضاً من هدايا من منزل جاره، منزل زينب، وفهم أنها رسـالة من زينب فدبت فيه روح جديدة.
عادت إليه زينب بكل تفاصـــيلها بعد أن نقل له أخوه في أول مقابلة مع عائلته أن زينب أباحت بحبها لأخته، ظل يعيش على ذلك الحلم الذي أصبح زاده.
تغير الوضـــع بشـــكل تدريجي، فكأن يداً تمتد إليه، ثم ما لبث أن نقل لمبنى آخر، هناك، سمع ضجيجاً كثيراً وكأنه يصـــدر في برية، هنا على العكس من الزنزانة السـابقة، صـــار مع رفيقين فقط، ظل هو وزميليه في تلك الزنزانة أســـابيع من العناء فالحر قد اشـــتد ولا هواء ســـوى من مروحة صـغيرة، ولا ماء نظيف سـوى ماء يحضـر في الصباح في إناء بلاستيكي.
بينما استرخى فوضـع جسـده على الجدار ورجليه معلقة على الجدار الآخر شـعر بأنه يسـمع أزيز صـادر من ذلك الجدار، وضع أذنه فسمع كلاماً غير مفهوم، نادى زميليه فقال: اصـــمتوا لحظة، دقق فســـمع طرقاً متناغماً على الجـدار، طرقـة ثم طرقتين ثم ثلاث، صـــمـت الجميع ووضـع أذنه على الجدار فسـمع صـوتاً بعيداً، فهم أن في

الطرف الآخر من يريد محادثته لكن كيف؟ بعد جهد فهم أن السجناء يتواصلون عبر وضع كوب الماء الحديدي المتصدي على الجدار وكانت إشارة الطرقة كما البرقية، والطرقتين انتهى والثلاث جاء الشرطي وكان الثلاثة هنا قد عزلوا ذلك العنبر دون أن يعلموا عن بعضه البعض لكن ماذا يفعلون وهم ثلاثة لا خبرة لهم بهذه الأمور.

ظل يراوحه شعوره تجاه زينب وكان يتعبه أنها ظلت تنتظره بينما هو في رحلته للبحث عن مستقبله، أخذ يفكر كيف تحب فتاة القرية في صمت وصبر، تأملاته بسبب شغفه بزينب ازدادت وأخذ يفكر كثيراً في ظلم الإنسان لأخيه الإنسان وكان يطوف بصداقته بسعد ويتحسر كيف ذهبت مع الريح وكيف تحولت علاقته بنورة إلى وهم تبدد مع أول شمس، تذكر عمه الذي يختفي في عتمة الفجر وقال لنفسه: لقد صرت كعمي، اختفي في العتمة هنا.

ما هي إلا أيام حتى لمح أول ابتسامة على شفة شرطي بعد أشهر من المأساة، فتح باب الزنزانة ووقف منتصباً وهو يبتسم، نظر الثلاثة إليه وهم غير عارفين ما يجري، ألقى بضع كلمات، ستغادرون بس خلكم منضبطين، الحمد لله فرجت.

بالفعل خرج علي بعد أشهر من المعاناة وعند أول نظرة للشمس لمح وجه السيد الصغير هناك في زاوية من

زوايا المكان، كان ينتظر الخروج أيضـــاً، قرر علي أن يكلمه قبل أن يختفي، حاول التوجه له لكن الشرطي منعه من ذلك، ضاع السيد الصغير مرة أخرى منه.
وعندما خرج وجد ســـعد ينتظره في الســـيارة، بادره بابتسامة وقال: اركب سأوصلك؟

- لكن معي أخي ناصر؟
- لا بأس، لقد أبلغته أنني سـأوصـلك سـلم عليه وتعالى معي!
- أخذه بالسيارة وطال الصمت بينهما ثم قال سعد: نورة تزوجت... أخذ ينظر لوجه علياً يحاول أن يفهم ردة فعله فوجد قسماته جامدة، لا توحي بأي شـيء سـوى أنه رد ببرود: بلغها تحياتي وتبريكاتي.
- حسناً سأوصل سلامك وستفرح به كثيراً، كما فحرت أنا بخروجك.
- هل أنت فرح بالفعل، ألست سجاني؟
- كلا يـا علي لقد كنت أتـابع أحوالك كل يوم، وكنـت أوصي بك زملائي، ألم يبلغوك بذلك؟
- ما قصـــرت بالفعل وجدت يدك تربت على كتفي في كثير من الأوقات.
- علي، أنا لم آتي لأخذك اليوم لأنني أريد معاتبتك، أنا صـديقك، وصـداقتنا حقيقية، صـحيح ظروف حياتنا تقاطعت لكننا أخوة، أليس كذلك؟

- صـــحيح لكن الظروف التي تتحدث عنها قطعت أوصالنا وقلوبنا...
- علي، الحياة مليئة بالتناقضـــات، عليك أن تبحث عن نفسك، في داخلك إنسان ناجح، ابحث وستجد طريقك، أنت فنان مبدع، خذ من الفن طريقاً...
- في هذه اللحظة لمح عليَ قريته من بعيد، ألقى أول نظرة على بيوتها فوجدها كما هي بكل تفاصـــيلها، وصل قرب منزله فطلب من سعد أن يقف عند جدار الملح الذي طالما لامســـه الحاج عبد الله وهو يودع ولده، نظر إليه ثم إلى سـعد وقال: أشـكرك صـديقي مرتين، مرة على هذه التوصـــيلة الدافئة ومرة لأنك أعدت لي إيماني بقيم الحياة التي كدت أظنها سراباً... هل سنبقى على تواصل؟
- أكيد!
- ترقب مني اتصالاً أو زيارة ربما؟
- إن شاء الله.
- غادر سـعد بسـيارته الفارهة، وتوجه عليَ إلى جدار الملح حيث ذاكرته وأيامه، أخذ نظرة لما حوله فوجد الصمت يطبق على كل شـيء، الليل حط هنا بسكونه كعادته، اقترب من الجدار فأحس بالدفء، تحســـس بيده ثم قبله وقال: شـــكراً لقد وهبتني حياة جديدة، لم أكن أعرف قيمتك من قبل.

الفصل الثامن

نصر الإرادة

بعد أربعة أعوام، علي يرتب البطاقات التي أعدها، حرص أن تكون أول بطاقة بخط يده، دقق في الموعد والمكان ثم تمتم: كل شيء جاهز، بقي شيء أخير، إنه آخر مدعو للمعرض، هذه المرة لن أفلته مني، لن أتركه يختفي في العتمة كما كل مرة، سأمسك به حتماً...

في الموعد بفندق الشيراتون على يسار البوابة الرئيسية وقف عليٌ ببدلته الأنيقة يستقبل الزوار، كان في مقدمتهم وزير الثقافة الذي قطع شريط المعرض، وقال بعض الكلمات في الحضور الحاشد: الفنان علي غنيُ عن التعريف، هذا المعرض سيكون إضافة فنية، كلنا متأكدون أن لوحاته ستكون مبدعة كما عرفناه.
الزوار يجوبون المعرض ويتوقفون عند بعض اللوحات لكن أغلبهم يقف على لوحة ذلك الجدار، الكثير من التساؤلات تطرح وعليُ لا يسترسل، بعضهم يقف عند لوحة الظل وقد استراح فيه أصحاب السيقان العارية، لكن واحدة فقط توقفت طويلاً عند لوحة الوجوه المتعددة، انتظرت حتى جاء عليُ بجوارها وسألته: من صاحبة هذه الوجه، إنها ليست أنا؟

- ليست أنت، ربما يكون انعكاسك في أعماقي، أو ربما يكون شيئاً ما، لست أدري؟
- شعرت أنه يتهرب من الإجابة!
- مهم أن أعرف هل بها شيء من نورة أم لا؟
- هل تحتفظين باللوحة التي رسمتها لك؟
- نعم، بالتأكيد، إنها في بهو منزلي...
- أما هذه فهي لوجه فيه شيء من أمل وحكاية من نورة وقبس من زينب؟ هي لوحة الوجوه المتعددة!
- يعني ليست وجهاً محدداً؟

- لا أظن فهي ربما وجه اخترت أن أرسمه في أعماقي، لكن الوجوه التي التقيتها تتمثل فيه.
- إنها لوحة جميلة...

تحولت نورة لذكرى جميلة، خطت طريقها دون وجل، وتقبل ذلك يتبتل الزاهد...

يتجول عليُ بين الحضور باسماً، تارة يحادث الوزير وأخرى يذهب لسعد وثالثة مع نورة، ثم يستريح قليلاً مع لوحاته التي تجره لماضيه.
كان ينتظر زائراً لم يأت بعد، الساعة تقترب من الظهر، صحيح أن المعرض سيستمر أياماً وهو حدث ثقافي سيأتي له كل الفنانين والنقاد لكنه كان ينتظر شخصاً ما، يريده أن يأتي في اليوم الأول، تسلل الوجل لقلبه بألا يأتي فيخيب أمله، لا يدري لماذا جعل من هذا الزائر مقياساً لنجاح المعرض، ماذا لو لم يأتي، لن يتغير شيء، هذا التهافت على المعرض وعلى حجز اللوحات مؤشر نجاح لا يخطئ، ليس كلام الوزير فقط هو من يجعل علياً في صدارة الفنانين، فالصحف غداً ستضج بالحديث عن هذا الحدث الكبير، لكنه برغم ذلك ينتظر ذلك الزائر، فجأة ومن بين الحشود وقع نظره على واحد ممن ينتظرهم، يكاد يخفي جسده بين الحضور، يريد أن يبدو مختفياً، نهض عليً من كرسيه واتجه له، وقف أمامه مباشرة،

أحس أنه أمسك به هذه المرة، نظر له بقوة، كأنه يريد أن يملأ عينيه منه، تأمل لحيته، بدا له أنيقاً كما لم يكن من قبل، بلباسه العربي كان كمن يتباهى، لكن خجله يفضحه، يحاول عليَّ أن يستقر على صورته كما هي الآن لكن شبحاً ما يطارده ويتلبس بهذا الواقف أمامه، يتأمل عينيه فيراها رائعة تخفي قصصاً كما البحر، يمد له يده، يقول له: مرحباً، كنت بانتظارك، خشيت ألا تحضر؟

- بالعكس وصلتني دعوتك فتعجبت أنك لا تزال تذكر زميلك في الصف الأول؟
- وهل يمكن أن أنساك يا صديقي!
- فرحت كثيراً أن زميلي الذي أصبح فناناً كبيراً يدعوني لمعرضه، الحمد لله إنك لم تنساني.
- صدقني إنك معي طوال محطات حياتي، أنت أحد الشخصيات التي تلهمني، أنا مدين لك بالكثير.
- لكنني لم أفعل شيئاً لك أبداً!
- صدقني إنك فعلت الكثير، ليس بالضرورة أن تتكلم أو تقوم بشيء لتخلق أثراً.
- تمنياتي لك بالتوفيق ومن الواضح من الحضور إن المعرض ناجح.
- أعطني أرقام تواصلك.
- حاضر...

كأنه كان يقول له: لن تفلت مني هذه المرة أيها السيد الصغير، سأمسك بك، وسأجعلك تمسح على جرحي الغائر ليشفى، لم أعد أتحمل المزيد من وجع ذلك الجرح، يكفي أنني عانيت منه طوال هذه السنين، لن يبرأ إلا بك.
جلس معه مطولاً، كان يريد أن يتأكد بأن قدميه العاريتين لم تعد كذلك، يريد أن يبدد كل شكوكه بأن السيد الصغير أصبح كبيراً، لم ينطق بشيء عن ذلك المشهد الذي أوجعه، لكنه سأله عن أسرته فقد كان يريد أن يعرف هل توفي ذلك الأب الكادح أم لا، بالفعل توفي الأب، فقد أجاب السيد الصغير عندما سأله: الوالد توفاه الله منذ ثلاث سنوات، البركة في الوالدة موجودة، وأنا أرعاها، الحمد تزوجت وأخذتها معي في منزلي.
نعم لقد صار السيد الصغير كبيراً، لم يعد ذلك الطفل الصغير الذي يركض خلف ظل أبيه، لم يتغير كثيراً، فهو قليل الكلام، إذا تحدث يتلفت حوله، يتحسس ردود الأفعال من سامعيه، لكنه يفيض طيبة ومحبة، لا يمكن أن يحادثه أحد ولا يحبه، في صمته وكلامه كاريزما جذب هائلة، ربما يكون من ذلك السكون الذي يلف وجهه المحبب.

- هل كنت تعرف والدي؟
- نعم، ليس معرفة بمعنى الكلمة، فقط لمحته في القرية وشدني قلبي إليه، إنه رجل مكافح.

- نعم كافح حتى آخر لحظة في حياته، توفي وهو لايزال يعمل في مجال النظافة، ربما لمحته وهو ينظف الشارع؟
- ربما، يكفي إنني عرفته... يحق لك أن تفخر به.
- صحيح، فخري بأبي هو زادي.

شعر عليُ بأن السيد الصغير يكذب على نفسه، إنه يشعر بالمرارة أكثر من الفخر، ليس لأن أباه عامل نظافة، كلا بل لأنه كان كما أهالي قريته وسط وحل لا ينتهي، كلما حاولوا الخروج يجدون أنفسهم يغرقون في ذلك الوحل، حتى أولئك الجالسين في الظل تجد آثار الوحل على أقدامهم.

لم يبح له بقصة الجرح الغائر، كما تألم يومها ولم يتمكن من الحديث لإخوته أو أمه وهو صغير، يجد نفسه غير قادر على البوح بألمه كبيراً، ظن أن علاج الجرح لن يكون بالبوح، يكفي أن أنظر لهذا السيد الذي أصبح كبيراً، لطفه سيعالج جرحي، يظن أنني أتفضل عليه بهذه الدعوة، نعم أنا الفنان الذي ذاع صيته وهو المدرس المغمور، لكن عليُ يعرف أنه مستعد ليستجدي حضوره، يعرف كم هو محتاج له، إنه أحد أسباب نجاحه وألمه، لو لم يتألم بذلك القدر لما رسم هذه اللوحات التي تجذب أولئك الحضور.

السيد الصغير الكبير بأدب جم يستأذن علياً ليشاهد المعرض، عندما انسحب السيد أخذ شيئاً من قلب عليَ

ومضى به، منحه ذلك الجزء بكل محبة، ثم عاد يترقب الزائر الذي لم يأت بعد، ربما لن يأتٍ، يمكن أن تكون الدعوة لم تصل إليه، لا أظن لقد تسلمها بيده.
لن ألوم الزائر إذا لم يحضر، ربما لا يكون موقع المعرض مناسباً أو الوقت، من يدري، بدأ يرسم الأعذار والوقت لم يتجاوز الظهر بعد، للتو حل موعد أذان الظهر، تسلل عليٍّ لقاعة مجاورة وأدى الصلاة وهناك وجد صديقه سعد سلم عليه وصليا جنباً إلى جنب، وعندما انتهيا من الصلاة تعانقا، دون أن ينبسا ببنت شفة تذكرا تلك الأيام التي جمعتهما، نظر سعد للتربة الحسينية وتبسم.

- عليُ: سعد لا تنسى تبلغ سلامي للوالد والولدة.
- سعد: الوالد يقول لولا مرضه الشديد لحضر اليوم.

أطل زائر متوقع وعليُ وسعد يتحاوران، نظرا إليه بابتسامة عريضة، إنه جمال الفنان، الترحيب بينهما طويل...
جمال: لقد شاهدت اللوحات، أنت مبدع ورائع، ما تقوم به أكبر من أن يبقى هنا، يجب أن يجد طريقه للعالم.
سعد: يستاهل فنانا الكبير.
علي: لا تبالغا.
جمال: أنا فنان وأعرفك مذ كنا في الثانوية، كنت أعرف أنك ستكون معجزة، ليست مبالغة.
عليُ: ممتن لك هذا المديح.

جمال: كما دعمتني ونحن في الصف أريد دعمك لمعرضي القادم؟
عليُ: حاضر أتشرف بذلك.
جمال: لا نريد أن نشغل وقتك اذهب واستقبل ضيوفك.
تأمل عليُ المشهد، القاعة أعادت سعداً وحسناً وجمالاً والسيد الصغير، اختزلت حياته كلها، اللوحات تستكمل المشهد، لوحة رسم فيها جدار الملح، ولوحة لوجوه لامست قلبه، وأخرى للجالسين في الظل، ساحل القرية جاء هنا، وحتى القوارب المتكسرة، النخيل والرجل الضخم وهو يطل بحماره، النسوة وهن يتسامرن في فناء البيت، كل شيء هنا في هذه القاعة، يبدو أنه لملم نفسه، وحول الرموز التي خطها على جدار الملح في لوحاته، لقد جمع شتاته، إلا من شيء أخير.
عاد عليُ للقاعة، يشغل نفسه بالحديث مع الزوار، قضى وقتاً مع صديقه حسن، وهو يتبرم من كثرة الأعمال في المدرسة التي يعمل بها، واستمع لقصة المدير المتعجرف ومساعده الضعيف، كلها قصص متكررة لكنه يسمعها وكأنه يستمع لها أول مرة، يعرف أن ذلك يريح صديقه.
الساعة الواحدة دقت لحظة الزمن الجديد، الزائر الذي ينتظره يدخل من بوابة المعرض، تلفه هالة نورانية ووقار، يترك عليُ كل شيء ويذهب لاستقباله، يرحب به...

- مرحباً زينب.
- مرحباً.
- تشرفت بحضورك.
- أنا التي تشرفت بدعوتك واسمح لي لقد حضرت ومعي مرافقين ليس لهم دعوة، إنه أخي وابن أختي.
- مرحباً بهم، مرافقيك ضيوفي.
- تفضلي خذي جولة في المعرض.
- أكيد، مرة أخرى أشكرك على الدعوة.

ذهبت وهو يتأمل الساعة في يدها، وضعت على يدها قطعة سوداء تغطيها عدا الكفين، لاحظ الساعة الذهبية، إنها الساعة التي أحضرها هدية لأمها وهو في الجامعة، تساءل: هل تعمدت لبس هذه الساعة؟ ربما...

وعند خروجهم عاود الترحيب بها، أخذ أخاها إبراهيم جانباً، أسر له بشيء ما، لقد ذكر أخاها بموعد زيارته لهم الليلة، كان قد اتفق معه بينما كانت زينب تتجول في المعرض، لقد حسم أمره بأن يتقدم لخطبتها، بعد مغادرتها جاء مشترٍ للوحة "الوجوه المتعددة" في مقدمة المعرض وعرض مبلغاً كبيراً من المال لشرائها لكن عليُ أبلغ مدير المعرض بأنها ليست للبيع، لقد خطط أن تكون هديته تلك الليلة لزينب هذه اللوحة.

انتهت الرواية ...